الأدب العالمي للناشئين

مغامرات شيرلوك هولمز



آرثر كونان دويل

مغامرات شيرلوك هولمز

مغامرات شيرلوك هولمز

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
أميرة علي عبد الصادق



مغامرات شيرلوك هولمز

آرثر كونان دويل

The Adventures of Sherlock Holmes

Arthur Conan Doyle

الطبعة الأولى ٢٠١٢م
رقم إيداع ١٦٧٨٧ / ٢٠١١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

دويل، آرثر كونان
مغامرات شيرلوك هولمز / آرثر كونان دويل؛ ترجمة أميرة علي.
تدمك: ٦ ١٤ ٥١٧١ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الإنجليزية

أ- علي، أميرة (مترجم)
ب- العنوان

٨٢٣

تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

المحتويات

فضيحة في بوهيميا

في نظر شيرلوك هولمز، هي دائمًا «المرأة»، المرأة التي فاقته حيلةً ودهاءً. لم يكن على صديقي سوى أن يقول «المرأة»، فأفهم عمن يتحدث. كان اسمها إيرين أدلر.

دعوني أقدم لكم نفسي: اسمي دكتور واطسون. تشاركنا أنا وهولمز السكن في بناية رقم ٢٢١ب شارع بيكر، إلى أن تزوجت. وعشنا هناك صديقين أعوامًا، كنت أساعده حينها في تحقيقاته. وقد حولت فيما بعد الكثير من هذه المغامرات إلى قصص لقرائي.

في إحدى الليالي، كنت أتجول في لندن، ووجدت نفسي في شارع بيكر. كان ذلك يوم ٢٠ مارس/آذار ١٨٨٨. نظرت إلى أعلى، فرأيت هولمز في نافذة الدور الثاني. تمكنت من رؤية جسده الطويل النحيل، وهو يسير جيئةً وذهابًا. كان رأسه منخفضًا، لكنني تمكنت مع ذلك من رؤية أنفه، الذي يشبه منقار الصقر، وذقنه الحاد، وكان يضع يديه خلف ظهره. لقد كان صديقي القديم صعب المراس في العمل. لم أره منذ وقت طويل، لذلك قرعت الجرس ودخلت.

نظر إليَّ هولمز بعينيه الحادتين الثاقبتين، وألقى عليَّ التحية مبتسمًا. بدا مسترخيًا وجسده الطويل النحيل ممددًا على أريكته القديمة المفضلة. تملكني شعور بالراحة مجددًا عندما تنفست هواء ردهته كريه الرائحة، ذلك المكان الذي تدارسنا فيه تفاصيل العديد من القضايا معًا. بدأ شيرلوك الحديث قائلًا: «أرى يا واطسون أنك تستمتع بالزواج، أعتقد أن وزنك قد زاد سبعة أرطال ونصف منذ أن التقيت بك آخر مرة، وألاحظ كذلك أنك عدت إلى ممارسة مهنة الطب. يؤسفني أن الأمطار هطلت عليك مؤخرًا، وأن لديك خادمًا مهملًا في المنزل.»

قلت له مندهشًا: «عزيزي هولمز، لقد زاد وزني بالفعل سبعة أرطال منذ أن رأيتك آخر مرة. وهطلت عليّ أمطار غزيرة في الريف الخميس الماضي. وأنت محق كذلك في اعتقادك أنني وزوجتي لسنا راضيين عن الخدم في المنزل. لكن كيف علمت بكل ذلك؟»

ضحك هولمز وقال: «حقًّا؟ كنت متأكدًا أنها سبعة أرطال ونصف. الأمر بسيط يا واطسون: يوحي حذاؤك بأنه كان مغطى بالوحل مؤخرًا، ويمكنني رؤية علامات الكشط التي تدل على أن شخصًا مهملًا نظف الحذاء.

كما أنني أشم فيك رائحة معقم ضعيفة، وأرى مسحوقًا أسود على إصبعك لا يُستخدم سوى في علاج حالات العدوى، يوجد أيضًا نتوء في معطفك حيث تحمل عادةً سماعتك. تشير هذه الأدلة إلى أنك عدت لامتهان الطب من جديد.»

فقلت له: «يبدو الأمر بسيطًا دائمًا للغاية عندما تشرحه يا هولمز. لكنني لا أفهم أبدًا كيف تنتقل من النقطة أ إلى النقطة ب، بالرغم من أنني أرى كل ما تراه.»

قال هولمز، وهو يعطيني ورقة سميكة: «أنت ترى، لكنك لا تلاحظ. على سبيل المثال: ماذا ترى في هذه الرسالة الموجزة؟ اقرأها بصوت مرتفع يا صديقي.»

فبدأت القراءة: «سيأتي رجل طويل القامة يرتدي قناعًا لزيارتك الليلة، إنه يرغب في التحدث إليك. لقد ساعدت أشخاصًا من أصول ملّكية من قبل، لذا فأنا أعلم أن بإمكاني الوثوق بك. لقد سمعنا بذلك من العديد من المصادر الموثوق بها.»

سأل هولمز: «ما الذي توصلت إليه من الرسالة يا واطسون؟»

فأجبته: «إنها مكتوبة على ورق غالي الثمن؛ فأيًّا كان من أرسلها، فهو ليس فقيرًا.» ورفعت الورقة إلى أعلى في الضوء، وقلت: «وتوجد كذلك علامات على الورقة.»

قال هولمز: «تشير العلامات إلى الكثير؛ فهي توضح اسم الشركة التي صنعت هذه الورقة تحديدًا. وقد توصلت إلى أنها تقع في مملكة بوهيميا.»

وتابع حديثه قائلًا: «ليس هذا كل ما في الأمر. فالشخص الذي كتب هذه الرسالة ألماني. هل لاحظت الاستخدام الغريب للغة في الجملة الأخيرة بالرسالة. ما كان ليكتب جملة كهذه شخص فرنسي أو روسي. لا يمكن أن يكتبها سوى شخص يتحدث الألمانية. وإذا لم أكن مخطئًا، ها هو ذا قد أتى ...»

يأتي من الخارج صوت حوافر خيول وعجلات عربة. وبعد لحظات قرع شخص الجرس، تلا ذلك صوت خافت لوقع أقدام على درجات السلم، ونقر عالٍ على الباب.

دخل رجل ضخم الردهة. كان مفتول العضلات وطوله يزيد عن ستة أقدام، يرتدي معطفًا فاخرًا وعباءة لونها أزرق داكن. كانت العباءة معقودة عند الرقبة بحجر كريم

كبير الحجم. وكان حذاؤه طويل الرقبة ومزودًا بالفراء في أعلاه. أمسك بقبعة كبيرة في إحدى يديه، في حين ضبط باليد الأخرى قناعًا للعين كان يغطي الجزء العلوي من وجهه.

قال هولمز: «رجاءً، تفضل بالجلوس. هذا صديقي وزميلي، دكتور واطسون. أي شيء ستخبرني به، يمكنك أن تقوله لرفيقي الجدير بالثقة.»

قال الغريب: «سيد هولمز، أنا الكونت فون كرام، أحد نبلاء بوهيميا. وأريد التحدث معك بشأن أمر في غاية الأهمية، وأود أن يكون ذلك على انفراد.»

نهضت لأغادر، لكن هولمز أمسك بذراعي، وقال: «إذا لم تتحدث إلى كلينا، فلن أستطيع مساعدتك.»

أجاب الزائر: «حسنًا، لكن يجب أن أبدأ بطلبي من كل منكما الحفاظ على هذه الأمور سرًّا مدة عامين، وبعد ذلك لن يهم الأمر. لكن الآن يعتمد مصير أوروبا على التزامكما الصمت.»

تعهدت أنا وهولمز بالحفاظ على الأمر سرًّا. وأكمل زائرنا حديثه: «أرجو معذرتي على ارتداء القناع؛ والشخص الذي أرسلني يجب أن يبقى اسمه مجهولًا، حتى إنني لم أخبركما باسمي الحقيقي.»

قال هولمز: «أعلم ذلك.»

وواصل ذو القناع حديثه: «يمكن أن تتسبب هذه الأحداث في فضيحة مروعة للعائلة المالكة في بوهيميا.»

أضاف هولمز: «وأعلم ذلك أيضًا. أكمل جلالتك، رجاءً.»

انزعج ضيفنا فجأة، وأخذ يسير في الغرفة بعصبية، ثم أمسك بالقناع، ونزعه من على وجهه، وألقاه على الأرض. وصاح قائلًا: «أنت محق يا سيد هولمز! لا يمكنني إخفاء شيء عنك. لم يرسلني أحد أعضاء الأسرة المالكة. أنا الملك ذاته! أنا فيلهلم جوتسريش سيجسموند فون أورمستين، الدوق الأعظم لكاسيل-فيلستين، ملك بوهيميا. تبلغ مشكلتي من الخطورة ما يمنعني من المجازفة بإرسال أحد بدلًا مني، فلا أثق بأحد سواي في رواية قصتي لك!»

قال هولمز: «حسنًا، أخبرني بها رجاءً.»

– «بدأ الأمر كله منذ خمسة أعوام. كنت أزور حينها وارسو ببولندا، والتقيت هناك بامرأة اسمها إيرين أدلر، ربما تكون قد سمعت عنها.»

قال هولمز لي: «رجاءً يا دكتور، ماذا يوجد في «الدليل» عن الآنسة أدلر؟»

احتفظ هولمز بكتاب كبير مليء بكل أشكال قصاصات الصحف والمعلومات التي تمكن من التوصل إليها. وكان يطلق على هذا الكتاب «الدليل». أخذت «الدليل» من على الرف، وعثرت على اسم «إيرين أدلر»، وأعطيته لهولمز.

قال هولمز: «لنرى، لقد ولدت في ليفربول في عام ١٨٥٨. عملت مغنية بالأوبرا، وغنت مع أوبرا وارسو الملكي، واعتزلت الغناء، وتعيش في لندن.» ثم نظر إلى أعلى نحو الملك، وقال: «ووقعت في حب هذه المرأة في وارسو.»

قال ضيفنا الملكي: «هذا صحيح يا سيد هولمز، لكنني سأتزوج الآن من أخرى، من أميرة نرويجية. وإذا اكتشفت عائلتها موضوع الآنسة أدلر، فسيدمر ذلك كل شيء! وهذه هي المشكلة، فالآنسة أدلر لا تريدني أن أتزوج، وتهدد بإرسال الخطابات الغرامية التي كنا نتبادلها إلى خطيبتي.»

اقترح هولمز: «يمكنك أن تقول إن الخطابات مزورة.»

فقال الملك: «لديها صورة محاطة بإطار لنا معًا.»

قال هولمز: «يا إلهي، هذه مشكلة. عليك أن تستردها، حتى إن اضطررت إلى سرقتها أو شرائها.»

رد الملك: «لقد حاولت استعادتها يا سيد هولمز. اقتحم رجالي منزلها، لكنهم لم يعثروا عليها. ولن تقبل الحصول على أي مبلغ من المال في مقابلها، وتقول إنها سترسل الصورة والخطابات يوم أعلن خطبتي؛ سيكون ذلك بعد ثلاثة أيام.»

قال هولمز: «إذن، يجب أن نبدأ العمل. سأحتاج إلى اسم الفندق الذي تقيم فيه، وعنوان الآنسة أدلر.»

قال الملك: «أقيم في فندق لانجهام تحت اسم الكونت فون كرام، وتقيم الآنسة أدلر في نزل بريوني بطريق سيربنتين.»

قال هولمز: «حسنًا، سأتصل بك في الفندق عندما تصلني أخبار. وأنت يا واطسون، أرجو أن تأتي لزيارتي غدًا الساعة الثالثة مساءً. سأقدر مساعدتك في هذا الشأن.»

وفي الثالثة بعد ظهر اليوم التالي، كنت في شارع بيكر، لكن هولمز لم يكن هناك. ظللت منتظرًا حوالي ساعة حتى فُتح باب المبنى. دخل رجل يرتدي ملابس بالية متسخة، وأشعث اللحية، ويعرج في سيره.

كان شيرلوك هولمز. كنت أعلم أن صديقي بارع في التنكر، مع ذلك كان يصعب علي التعرف عليه. توجه هولمز إلى غرفة النوم، وعاد بهيئته المعتادة. جلس بجوار النار وضحك.

قال هولمز: «يا له من صباح مثير يا واطسون! يمكنك أن تخمن من تنكري أنني قد زرت منزل الآنسة أدلر لأراقبها. لم يكن هناك أي شيء غير عادي بشأن نُزل بريوني، لكنني لاحظت وجود غرفة جلوس كبيرة ذات نوافذ كبيرة للغاية بالدور الرئيسي.

وتحدثت أيضًا مع العديد من الأفراد في الشارع، وعلمت أن الآنسة أدلر تخرج كل يوم في الخامسة وتعود في السابعة. وهناك أيضًا سيد وسيم يزورها في كثير من الأحيان. يدعى هذا السيد جودفري نورتون، ويبدو أنه محامٍ. هل هذا يعني أنه يعمل لحساب الآنسة أدلر؟ هل هما أصدقاء؟ ما العلاقة بينهما؟ إذا كان يعمل لحسابها، فربما تكون الصورة معه.»

أكمل هولمز حديثه: «لم يمر وقت طويل حتى وصلت سيارة أجرة تجرها الخيول إلى نُزل بريوني، كان السيد نورتون. اندفع مسرعًا من السيارة إلى المنزل، وبعد ذلك رأيته يسير جيئةً وذهابًا في غرفة الجلوس. لم أر الآنسة أدلر، لكنني أظن أنها كانت معه.

بعد نصف ساعة، ظهر وهو يخرج مهرولًا من المنزل. وقبل أن يعود داخل العربة الأجرة، سمعته يطلب من السائق أن يسرع إلى كنيسة سانت مونيكا، ثم ذهب إلى هناك.

وبينما كنت أتساءل عما سأفعله بعد ذلك، وصلت عربة أخرى تجرها الخيول. كان دور الآنسة أدلر في الإسراع من المنزل. لم يسعني سوى إلقاء نظرة خاطفة عليها يا واطسون، لكنها سيدة جميلة. يمكنني أن أفهم سبب اتباع الملك لقلبه، وليس لعقله.

صعدت الآنسة أدلر إلى العربة، وطلبت من السائق أن يسرع إلى الكنيسة نفسها. ناديت على عربة أجرة، واتبعتها. وعند وصولي إلى سانت مونيكا، كانا هناك بالفعل. دخلت بهدوء، ورأيت الاثنين في مقدمة الكنيسة، كانا يقفان مع القس. حاولت الاقتراب متظاهرًا أنني مجرد متجول دخل لتوه إلى المكان من الشارع.

فاجأني السيد نورتون بركضه نحوي، وسحبه إياي إلى المذبح. قال إنهم بحاجة إلى شاهد ليكون الزفاف قانونيًّا. وقبل أن أدرك ما يحدث، كنت قد ساعدت الاثنين في أن يتزوجا!

وجها إلي الشكر، وأعطياني بعض العملات المعدنية. سمعت الآنسة أدلر وهي تخبر زوجها أنها ستعود إلى المنزل في السابعة كالمعتاد، ثم غادرا الكنيسة في عربتين مختلفتين.»

فقلت له: «يا له من صباح مثير بالفعل يا هولمز! لكن ماذا سنفعل الآن؟»

أجاب هولمز: «الآن يا واطسون أحتاج إلى مساعدتك. يجب أن نكون في نُزل بريوني في السابعة هذا المساء عندما تعود الآنسة أدلر — أو بالأحرى السيدة أدلر — إلى المنزل.

لقد قمت بالترتيبات بالفعل ليساعدنا آخرون هناك. سأدخل إلى المنزل، ثم سيفتح أحدهم النافذة الموجودة في غرفة الجلوس. وعندما أشير إليك من الداخل، عليك أن تلقي بهذه عبر النافذة.»

أعطاني هولمز أنبوبًا صغيرًا، وأوضح لي أنه قنبلة دخان.

وأكمل حديثه: «وبعد ذلك، ستصرخ قائلًا «حريق» بأعلى صوتك. وسينضم إليك آخرون في الإنذار بالأمر. وأخيرًا، ستنتظرني في آخر الشارع.»

قلت له: «يمكنك الاعتماد علي يا هولمز.»

تناولت أنا ورفيقي الغداء في هدوء، ثم اختفى هولمز في غرفة نومه. وعندما عاد كان متنكرًا ثانيةً. هذه المرة كان يرتدي ملابس قس: قبعة سوداء وسروالًا فضفاضًا. لكن أبرز ما تغير فيه هو أسلوبه وتعبيره. طالما اعتقدت أن هولمز باستطاعته أن يكون ممثلًا عظيمًا، وهذا دليل على ذلك.

تركنا شارع بيكر، وكنا في نزل بريوني قبل السابعة. فاجأني وجود الكثير من الأشخاص في الشارع. كانت هناك مجموعة من الرجال رثي الثياب يقفون في الزاوية. وكان هناك سيدان يتحدثان مع امرأة شابة، في حين كان هناك العديد من الناس الذين يسيرون في الطريق.

قال هولمز: «الآن، وبعد أن تزوج الاثنان أصبحت الصورة أكثر أهمية. لا يريد الملك أن تراها خطيبته، لكنني على يقين أن إيرين أدلر لن ترغب في أن يراها السيد نورتون أيضًا.

لكن يظل السؤال: أين الصورة؟ فهي ليست صغيرة بما يكفي لتحملها معها. ربما تكون قد أعطتها للمصرفي أو المحامي اللذين تتعامل معهما. لكنني لا أظن أنها فعلت ذلك؛ فقيمة الصورة أكبر من أن تأتمن أحدًا آخر عليها. كما أنها ستود أن تكون تحت يدها في أية لحظة تحتاجها فيها، لذلك لا بد أنها في المنزل.»

قلت له: «لكن رجال الملك فتشوا المنزل بالفعل.»

فرد هولمز: «لم يعرفوا أين يجب البحث.»

سألته: «كيف سيكون بحثك إذن مختلفًا؟»

– «إنني لن أبحث عنها، بل سأجعل المرأة تدلني على مكانها.»

سألته: «لكن ما الذي يمكن أن يجعلها تفعل ذلك يا هولمز؟»

توقفت عربة إيرين أدلر فجأة أمام المنزل. وأثناء خروجها من العربة، اندفع رجلان لفتح باب العربة لها. وأخذا يتدافعان ويتجادلان؛ وانضم آخرون إليهما، وسرعان ما

أصبحت المرأة وسط مشاجرة. اندفع هولمز متنكرًا لمساعدتها، لكن عندما وصل إليها، صرخ وسقط على الأرض بلا حراك، والدم يسيل من وجهه. وفر من كانوا يتشاجرون في الشارع.

شقت إيرين أدلر طريقها وسط الحشد باتجاه المنزل، وعندما أوشكت على الاختفاء بداخله، استدارت وسألت: «هل السيد المسكين بخير؟»

أجاب واحد من الحشد: «لا أعتقد، يا له من أمر مخزٍ! لقد أنقذك من سرقة العصابة لحفظتك وساعتك. هل يمكنك اصطحابه معك إلى الداخل حتى يستريح؟»

أجابت السيدة: «بالطبع، أحضروه إلى غرفة الجلوس، وضعوه على الأريكة.»

وقفت بالخارج، وشاهدت هولمز وهو محمول إلى غرفة الجلوس. وبعد دقيقة واحدة، رأيته يجلس ويتحرك نحو النافذة. فتحت إحدى الخادمات النافذة، وتركت الغرفة. وبعد لحظات، أشار إليَّ هولمز، فألقيت سريعًا بقنبلة الدخان داخل المنزل وصحت قائلًا: «حريق!» وفي خلال لحظات، كان الناس من حولي يصيحون بالكلمة نفسها. وتدافعت سحب الدخان من الغرفة، ثم سمعت صوت هولمز وهو يصرخ بصوت يعلو فوق الضوضاء: «إنذار خاطئ!»

وبعد اجتياز الأمر، لحق بي صديقي بعد فترة قصيرة. سألته: «هل الصورة معك؟»

أجاب هولمز، ونحن نسير في طريقنا بتمهل نحو المنزل: «لا، لكنني أعرف مكانها. لقد أرشدتْني، كما توقعت، إلى المكان الذي تخفيها فيه بالضبط.

دعني أوضح لك الأمر يا واطسون. أنت تعلم الآن أن الناس في الشارع كانوا يساعدوننا. لقد طلبت منهم افتعال شجار عند عودة السيدة إلى المنزل. وتظاهرت بالسقوط، وافتعلت إصابة باستخدام بعض الطلاء الأحمر.

كنت أشك في وجود الصورة بغرفة الجلوس. وعلمت أيضًا ما سيحدث عند سماعها كلمة: «حريق». فستحاول إنقاذ أكثر ممتلكاتها قيمة، ألا وهي الصورة.

لذلك، عندما امتلأت الغرفة بالدخان، أسرعت إلى خزانة سرية في جدار من الجدران، وفتحتها وسحبت الصورة. وعندما صحت بأن الإنذار خاطئ، أعادت الصورة إلى مكانها. وفي الوقت نفسه لاحظت أنها لمحت قنبلة الدخان، ثم اختفت. كان بإمكاني أخذ الصورة في تلك اللحظة، لكن دخل أحد الخدم إلى الغرفة، وتحتَّم علي الفرار.»

قلت له ونحن ندخل شارع بيكر: «رائع يا هولمز. لكن ماذا سنفعل الآن؟»

فأجاب: «سأبعث برسالة إلى الملك، وأخبره بما توصلنا إليه. وسأطلب منه الانضمام إلينا صباح غد، ثم نذهب لزيارة نُزل بريوني ثانيةً. سيرشدنا أحدهم إلى غرفة الجلوس، وهناك سنستعيد الصورة.»

وصلنا إلى باب البناية رقم ٢٢١ب، وكنا على وشك الدخول عندما صاح أحدهم من الشارع المزدحم قائلًا: «طابت ليلتك يا سيد هولمز.»

استدرت أنا وهولمز، لكننا لم نتمكن من رؤية المتحدث. قال هولمز، وهو ينظر إلى الشارع: «لقد سمعت هذا الصوت من قبل، تُرى من ذلك الشخص؟»

وصل الملك في الصباح التالي. وفي طريقنا إلى نُزل بريوني في عربته، أخبرناه بما حدث.

أوضح هولمز: «لقد تزوجت إيرين أدلر.»

فصاح الملك: «تزوجت! متى؟ وممن؟»

أجاب هولمز: «من محامٍ إنجليزي يُدعى نورتون.»

رد رفيقنا الملكي قائلًا: «من المؤكد أنها لا تحبه.»

قال هولمز: «أتمنى لو أنها تحبه بالفعل؛ فإذا كانت تحبه، فهذا يعني أنها لا تحبك. وإذا كانت لا تحبك، فلن تزعجك على الأرجح ثانيةً.»

وصلنا بعد وقت قصير إلى نُزل بريوني. وعندما كنا نقترب من المنزل، فتحت سيدة عجوز الباب الأمامي وألقت علينا التحية، وقالت: «السيد شيرلوك هولمز، أليس كذلك؟»

بدا رفيقي حائرًا وهو يقول: «بلى، أنا هولمز.» كانت الحيرة تعبيرًا لم أعتد رؤيته على وجهه.

قالت السيدة: «أبلغتني السيدة نورتون بحضورك. لقد غادرت إلى أوروبا هذا الصباح مع زوجها، ولن تعود مطلقًا إلى إنجلترا.»

قال الملك متفجعًا: «والصورة؟ والخطابات؟ ضاع كل شيء!»

قال هولمز: «سنرى.» دخلنا إلى المنزل وأسرعنا إلى غرفة الجلوس. ذهب هولمز إلى الخزانة السرية بالجدار وفتحها. مد يده إلى الداخل، وسحب صورة وخطابًا. كانت الصورة لإيرين أدلر، والخطاب موجه إلى شيرلوك هولمز. مزق صديقي المظروف ليفتحه، وقرأ الخطاب الموجود داخله:

عزيزي السيد هولمز:

أهنئك على إتقانك لمهمتك، كدت أن تخدعني تمامًا. حذرني أحدهم أن الملك سيطلب مساعدتك، لكن حتى مع هذا التحذير، تمكنت من خداعي لأرشدك إلى مكان الصورة. ولم أشك في أن الأمور تختلف عما تبدو عليه إلا بعد الإنذار.

أردت أن أتيقن أنه أنت، فاتبعتك أنت ورفيقك إلى المنزل. ولكوني فنانة مسرحية، فإنني أمتلك الملابس وأدوات التنكر الخاصة بي. ارتديت ملابس صبي صغير السن، وعندما وصلت إلى شارع بيكر، تأكدت أنني أتعامل مع المخبر العظيم: شيرلوك هولمز. وكان تصرفًا طائشًا، لكنني لم أتمكن من مقاومة رغبتي في أن ألقي عليك تحية المساء.

قررت أنا وزوجي الرحيل على الفور. وفيما يتعلق بالصورة، فأخبر جلالته أنه لا داعي للخوف من أي شيء. لقد أساء معاملتي، لكنني أنا وزوجي يحب كل منا الآخر. ولن أستخدم الصورة ضده، لكنني سأحتفظ بها لأحمي نفسي من أي شيء يمكن أن يفعله الملك. وربما يرغب في شيء يذكره بي، لذلك أترك له هذه الصورة.

مع خالص تحياتي،
إيرين أدلر

صاح الملك: «آه، كم أتمنى لو كان بإمكاني الزواج منها. كم ستكون ملكة عظيمة! سيد هولمز، أنا مدين لك، فلم يعد هناك ما أخافه بشأن الصورة. والآن، أخبرني كيف يمكنني مكافأتك.»

قال هولمز: «هناك شيء واحد تمتلكه جلالتك وأرغب في الحصول عليه.»

فرد الملك: «اطلب ما تشاء!»

أجاب هولمز: «هذه الصورة.»

أخذ شيرلوك صورة إيرين أدلر وانحنى للملك، ثم غادرنا نُزل بريوني. وطوال طريق عودتنا إلى المنزل، كان هولمز هادئًا على غير العادة. لقد نجا الملك من فضيحة، لكن صديقي «خدعته» امرأة متفردة اسمها إيرين أدلر.

رابطة ذوي الشعر الأحمر

عزمت في أحد أيام الخريف الباردة على زيارة صديقي شيرلوك هولمز. كان السير ممتعًا، ووصلت سريعًا إلى شارع بيكر. لكن هولمز كان لديه زائر بالفعل، رجل ضخم البنيان كبير السن، وشعره أحمر كالنار.

قال هولمز: «وصلت في الوقت المناسب يا واطسون. أعتقد أنك ستجد قصة هذا السيد مشوقة للغاية. ويمكن أن تثبت هذه القصة ما كنت أخبرك به دائمًا؛ وهو أن الحقيقة أغرب من الخيال، وأن أبسط الجرائم تكون أكثرها تشويقًا في بعض الأحيان.

هذا السيد جابيز ويلسون. وكان يخبرني ببعض الأحداث شديدة الغرابة. رجاءً سيد ويلسون، لتبدأ من جديد.»

قبل أن يبدأ الرجل ذو الشعر الأحمر في رواية قصته، سحب جريدة من جيب معطفه. وأثناء تصفحه لها، دققت النظر فيه. حاولت أن أخمن بعض الأمور عنه بالأسلوب الذي كان صديقي المخبر يتبعه دائمًا.

كان بإمكان هولمز ملاحظة ما كنت أفعله، فنظر إليَّ وقال: «أنا أيضًا لم ألاحظ أي شيء يا واطسون، فيما عدا بالطبع أن السيد ويلسون عامل، وعضو في منظمة تُعرف بالماسونية، وأنه زار الصين، وكان يكتب كثيرًا مؤخرًا.»

رفع السيد ويلسون نظره عن الجريدة بعينين متسعتين، وقال: «كيف لك أن تعرف ذلك يا سيد هولمز؟ صحيح أنني عامل، وعملت نجارًا للسفن، وما قلته غير ذلك صحيح أيضًا.»

أوضح هولمز قائلًا: «عضلات يدك اليمنى أكبر من اليسرى، مما يشير إلى أنك استخدمت يديك في عملك. كما أنك تضع دبوسًا يحمل رمز الماسونية. وألاحظ أيضًا أن طرف الكُم الأيمن لامع للغاية ومهترئ، وهي علامة على أنك قضيت وقتًا طويلًا في الكتابة.»

وأكمل هولمز: «يوجد أيضًا وشم على هيئة سمكة على رسغك الأيمن. لقد درست الوشوم، وهذا الوشم لا يمكن رسمه سوى في الصين. وألاحظ كذلك عملة صينية تتدلى من سلسلة ساعتك. تدل هذه الأمور على أنك زرت تلك البلاد البعيدة.»

طالما أدهشني سجل الحقائق المخزن في رأس هولمز. فهو قد لا يعلم أن الأرض تدور حول الشمس، أو لا يمكنه ذكر اسم مؤلف كتاب شهير، لكن بإمكانه إخبارك بالبلد الذي يرجع إليه أصل وشم ما. ويمكنه كذلك دراسة رماد السجائر المختلفة، والتمييز بينها.

ضحك السيد ويلسون بصوت مرتفع، وقال: «لقد فهمت الآن يا سيد هولمز. ظننت في بادئ الأمر أن ما فعلته شيء بارع، لكن يبدو أنه لم يكن صعبًا على الإطلاق.»

وجه هولمز حديثه إليَّ وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه: «ذكّرني يا واطسون ألا أوضح الأساليب التي أتبعها في المستقبل. والآن يا سيد ويلسون، هل عثرت على الخبر في الجريدة؟»

«نعم، ها هو ذا. من هنا بدأ الأمر كله.» أعطاني ويلسون الجريدة التي يرجع تاريخ إصدارها إلى شهرين ماضيين، وأشار إلى إعلان صغير في الصفحة، فقرأته:

> **إلى رابطة ذوي الشعر الأحمر:**
>
> بناءً على طلب الراحل هزكيا هوبكنز، من لبنان ببنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية، هناك وظيفة خالية لشخص ذي شعر أحمر، يتمتع بسلامة العقل والبدن، ويزيد عمره عن ٢١ عامًا. سيحصل من ينجح من المتقدمين للوظيفة على راتب. يرجى التقدم شخصيًّا يوم الاثنين، الساعة الحادية عشرة، لدانكان روس، في ٧ بوبز كورت، شارع فلييت.

سألت: «ماذا يعني ذلك؟»

قال ويلسون: «حسنًا يا سيد واطسون، إنني أمتلك محل رهونات صغير أبيع وأشتري فيه السلع المستعملة من الناس. وبالكاد أكسب ما يكفيني من قوت يومي. وما كنت لأتمكن من دفع راتب لمساعدي لولا أن لديه الاستعداد للعمل مقابل نصف ما يجب أن أدفعه له، ليتمكن فقط من تعلم المهنة.

اسمه فينسنت سبولدنج، وهو عامل جيد. شكواي الوحيدة منه هو أنه يقضي الكثير من الوقت في ممارسة هوايته، وهي التصوير الفوتوغرافي. فهو يلتقط الصور، ثم يقضي ساعات طويلة في غرفته المظلمة الموجودة بقبو المحل.

هناك فتاة صغيرة أيضًا في المحل تتولى أعمال الطهي والتنظيف. ولست متزوجًا أو لدي عائلة. فلا يوجد هناك سوى ثلاثتنا، نعيش معًا في هدوء.»

وأكمل قائلًا: «لكن منذ شهرين، أراني سبولدنج الإعلان الذي قرأته لتوك. وقال إنه كان يود أن يكون ذا شعر أحمر لأنه سمع أن الوظيفة سهلة وراتبها جيد. وأنه سمع أيضًا أن هزكيا هوبكنز مليونير أمريكي. ويبدو أن هوبكنز كان ذا شعر أحمر، وغريب الأطوار؛ فأراد أن تذهب ثروته إلى أشخاص ذوي شعر أحمر، لذلك عندما مات، ترك أمواله لتصل إليهم بهذه الطريقة الغريبة.

وأوضح سبولدنج أن هوبكنز عاش في لندن منذ سنوات. ويبدو أنه أحب المكان، لذلك ترك أمواله للرجال ذوي الشعر الأحمر من هذه المدينة. وقال مساعدي إن العرض بدا مثاليًّا لي.»

أكمل السيد ويلسون: «فأغلقنا المحل، وذهبنا إلى مكتب الرابطة. وعندما وصلنا يا سيد هولمز، وجدنا الشوارع مكتظة برجال ذوي شعر أحمر. لم أكن أعلم أبدًا أن عددنا كبير هكذا. وكان جميع هؤلاء الرجال يسعون إلى الفوز بالوظيفة.

لم أعتقد أن أمامي أية فرصة للفوز بالوظيفة، لكن سبولدنج أخبرني أن الوظيفة لن تُمنح إلا لشخص ذي شعر أحمر متوهج اللون مثل شعري. فتدافعنا عبر الحشد وصولًا إلى باب المكتب، وانتظرنا. ولم يمر وقت طويل حتى وصلنا إلى الداخل.

وفي المكتب كان هناك رجل يجلس على مائدة وشعره يشبه شعري في درجة اللون الأحمر. تحدث مع كل رجل، واحدًا تلو الآخر. وطرح عليهم جميع الأسئلة، ثم أخبرهم أنهم غير ملائمين للوظيفة.

وأخيرًا جاء دوري. بدا الاهتمام الشديد بي على الرجل من اللحظة الأولى، حتى إنه طلب من الجميع الرحيل، وأشاد بشعري. وليتأكد من أنني الشخص المناسب للوظيفة، أمسك بشعري بكلتا يديه وشدَّه! وعندما صحت من الألم، شرح لي أن عليه توخي الحذر. فكثير من الرجال ارتدوا شعرًا مستعارًا أو صبغوا شعرهم.

صافحني بعد ذلك، وأخبرني أنني قد حصلت على الوظيفة، وسار ناحية نافذة المكتب، وفتحها، وصاح في الحشد قائلًا إن الوظيفة قد شُغلت.»

قال ويلسون: «كان اسمه دانكان روس. وأخبرني أنني سأعمل من الساعة العاشرة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر. وأوضحت له أن لدي محلًّا أديره، لكن سبولدنج قال إنه سيسعده الاهتمام بالمحل نيابة عني.

أخبرني كذلك أن مهمتي ستتمثل في نسخ الموسوعة البريطانية، على أن أبدأ العمل في اليوم التالي مباشرةً.»

أردف ويلسون: «وهكذا كنت هناك في اليوم التالي. والغريب في الأمر أن كل شيء سار وفقًا للاتفاق. كان السيد روس هناك ليساعدني في بدء العمل، وبدأت في نسخ الموسوعة، بدءًا من الحرف "A". وكان السيد روس يتركني بمفردي في بعض الأحيان. وعاد في الساعة الثانية، وأخبرني أن عملي قد انتهى لذلك اليوم، ودفع لي أجري، وذهبت إلى المنزل.

وهكذا يا سيد هولمز، استمر الحال أسبوعًا تلو الآخر: أنسخ الموسوعة في الفترة من العاشرة إلى الثانية. وكل سبت أحصل على راتبي. وبعد فترة لم أعد أرى السيد روس كثيرًا. واستمر الوضع كذلك ثمانية أسابيع. كتبت عن الرماية والدروع والهندسة المعمارية، وكنت أتمنى أن أصل إلى الحرف "B"، لكن اليوم انتهى كل شيء.»

بدا السيد ويلسون منزعجًا وهو يكمل قصته قائلًا: «ذهبت إلى المكتب هذا الصباح كالمعتاد، لكن الباب كان مقفلًا. وكانت هناك لافتة صغيرة معلقة على الباب، يمكنك أن تقرأها بنفسك.» وأعطى لهولمز لافتة كُتب عليها:

لم تعد هناك رابطة لذوي الشعر الأحمر. ٩ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٠.

قال هولمز: «يا سيد ويلسون، إن قضيتك شديدة الغرابة. رجاءً أكمل، ماذا فعلت بعد ذلك؟»

أجاب ويلسون: «سألت مالك العقار عما إذا كان يعلم أين ذهب السيد روس، فأجاب إنه لا يعرف أحدًا بهذا الاسم. لكنه قال إن الرجل ذا الشعر الأحمر، الذي استأجر المكتب، قد انتقل إلى مكتب جديد في ١٧ شارع كينج إدوارد.

ذهبت إلى ذلك العنوان يا سيد هولمز، لكنه كان مصنعًا وليس مكتبًا. فعدت إلى المنزل. ورأى سبولدنج أنه ربما تصلني أخبار من الرابطة، لكنني قررت المجيء إلى هنا، لعلك تستطيع مساعدتي.»

قال هولمز: «لقد كنت محقًّا في المجيء إلى هنا يا سيد ويلسون، فهذه قضية فريدة من نوعها. وقد تكون أخطر مما تتخيل. أخبرني ما المدة التي كان مساعدك سبولدنج قد قضاها في العمل لديك عندما عرض عليك الإعلان؟»

فأجاب ويلسون: «حوالي شهر.»

– «وكيف عيَّنته لديك؟»

قال ويلسون: «نشرت إعلانًا في الجريدة، وتقدم الكثير من الناس، لكنني منحت الوظيفة لسبولدنج لأنه كان لديه الاستعداد للعمل بنصف الأجر.»

سأل هولمز: «هل يمكنك أن تصفه لي؟»

– «إنه صغير الحجم، لكنه قوي البنية، حليق الذقن والشارب، وهناك علامة بيضاء على جبينه نتيجة لحمض تعرض له في حادث.»

اعتدل هولمز في جلسته على الكرسي، وقال: «وأذناه؟ هل هما مثقوبتان لتعلق بهما أقراط؟»

– «في الواقع يا سيد هولمز إنهما مثقوبتان بالفعل.»

قال صديقي: «لقد سمعت ما يكفي يا سيد ويلسون. اليوم هو السبت، آمل أن أتوصل إلى إجابة لما حدث بحلول يوم الاثنين.»

بعد أن غادر جابيز ويلسون، جلس هولمز على كرسيه، وقال لي: «واطسون، إنني مضطر أن أطلب منك عدم التحدث إلي مدة خمسين دقيقة.» وبذلك أغلق عينيه، وجلس دون حركة حتى ظننت أن رفيقي قد غلبه النوم، ثم فجأة هب من على كرسيه وسألني: «هل يمكن لمرضاك الاستغناء عنك بضع ساعات يا واطسون؟»

فأجبته: «نعم، بالطبع.»

قال لي: «حسنًا، فلتأتِ معي»، وخرجنا من الباب.

لم يمر وقت طويل حتى كنت أنا وشيرلوك هولمز واقفين أمام محل ويلسون. سار صديقي في الشارع الهادئ جيئة وذهابًا، متفحصًا بعناية جميع المنازل. وتوقف ثانيةً أمام المحل. ونقر بعصاه على الرصيف بصوت عالٍ. وأخيرًا ذهب إلى باب المحل ونقر عليه. فأجابه رجل صغير السن حليق الذقن والشارب.

قال هولمز: «آسف على الإزعاج، لكن هل يمكنك إخباري بكيفية الذهاب إلى ستراند من هنا؟»

وصف الرجل لهولمز الاتجاهات، ثم أغلق الباب. استدار صديقي إلي وقال: «إنني أعرف هذا الرجل يا واطسون. لا يضاهيه الكثيرون في الذكاء والجرأة؛ هل لاحظت ركبتي سرواله؟»

فأجبته: «لا، ماذا لاحظت؟»

رد هولمز: «ما توقعت رؤيته بالضبط.»

أشرت إلى الأرض وسألته: «لكن لماذا نقرت على الرصيف؟»

«قبل أن أجيب عن أي أسئلة أخرى، يجب علينا استكشاف المزيد.» اتبعت هولمز وهو ينتقل عبر الزاوية إلى الشارع الموجود خلف محل السيد ويلسون. كان طريقًا مزدحمًا ومختنقًا مروريًّا.

قال هولمز: «هل ترى المباني هنا يا واطسون؟ أحاول أن أتذكر شوارع لندن قدر الإمكان. هناك محل مورتيمر للتبغ، ومحل جرائد، ثم مصرف سيتي آند سوبربن، ومطعم، ومحل عربات ماكفارلين. أمر مثير للاهتمام للغاية.»

استدار بعد ذلك ناحيتي، وقال: «ليس هناك شيء آخر نفعله هنا يا صديقي. ماذا عن قضاء فترة ما بعد الظهيرة في الاستمتاع بحفلة موسيقية في قاعة سانت جيمس؟ إنها قريبة وسيكون الأمر تغييرًا جيدًا.» لم يفاجئني اقتراحه، فكنت أعلم أن هولمز يستمتع للغاية بالموسيقى. في واقع الأمر، كان ماهرًا جدًّا في العزف على الكمان، وكان يعزف لي في كثير من الأحيان.

وأثناء مشاهدتي له وهو يستمتع بالحفلة الموسيقية، أخذت أفكر في حالاته المزاجية المختلفة. فعندما يكد في العمل على قضية ما، يكون جادًّا وحازمًا وغير ودود. أما عندما كان يستمع إلى الموسيقى بعد ظهر ذلك اليوم، فكان خاليًا من الهموم وسعيدًا وحالمًا، كما لو لم يكن هناك ما يشغل باله. لكنني أعلم أيضًا أن حالاته المزاجية السعيدة تعني في أحيان كثيرة أنه توصل إلى حل لقضية ما. لو كنتُ مجرمًا، فلست موقنًا أيًّا من حالات هولمز المزاجية يمكن أن أُفضل.

خارج القاعة، وبعد أن استعاد هولمز نشاطه، استدار ناحيتي وقال: «أعتقد يا واطسون أنه قد حان الوقت لمنع جريمة خطيرة. سأحتاج إلى مساعدتك الليلة. هل يمكنك إحضار مسدسك ومقابلتي في شارع بيكر الساعة العاشرة؟ شكرًا لك. والآن لديّ عمل يجب أن أقوم به.»

وأثناء مشاهدتي لهولمز وهو يبتعد مسرعًا، بدأت أفكر في قضية رابطة ذوي الشعر الأحمر. لقد سمعت كل ما سمعه رفيقي، ورأيت كل ما رآه. لكن اكتشف شيرلوك هولمز أن جريمة خطيرة على وشك الحدوث، لكنني لم أكتشفها. إلى أين سنذهب الليلة؟ وماذا سنفعل؟ ما الجريمة التي ستُرتكب؟ يجب أن أنتظر قبل أن أتوصل إلى إجابات عن هذه الأسئلة.

عندما وصلت إلى شارع بيكر تلك الليلة، وجدت عربتين تجرهما الخيول خارج المبنى. وفي الداخل، كان هولمز برفقة ضابط شرطة ورجل آخر.

قال هولمز: «أظن يا واطسون أنك تعرف السيد بيتر جونز من شرطة سكوتلاند يارد.» ثم قال وهو يشير إلى الرجل الآخر: «وهذا السيد ميري ويزر، مدير مصرف سيتي آند سوبربن. سينضم إلينا في المغامرة التي سنخوضها الليلة.»

قال السيد ميري ويزر: «أرجو ألا تكون مغامرتنا مجهودًا لا طائل منه.»

رد جونز: «لا تقلق، فإنني عملت مع السيد هولمز من قبل. وقد ساعد شرطة سكوتلاند يارد مرة أو مرتين في الماضي. ويمكن أن يصبح مخبرًا جيدًا في أحد الأيام.»

قال هولمز مبتسمًا: «أعدكما أن الليلة ستستحق العناء. فستعني مبلغًا كبيرًا من المال لك يا سيد ميري ويزر؛ والقبض على شخص ظللت تطارده كثيرًا من السنوات يا سيد جونز.»

قال السيد جونز: «هذا صحيح يا سيد ميري ويزر. وفقًا لما أخبرني به السيد هولمز، فإن المساعد الذي يعمل بالمحل، ويطلق على نفسه اسم سبولدنج، ليس سوى جون كلاي الذي تطارده منذ فترة طويلة. إنه قاتل ولص؛ ما من مجرم في لندن أتمنى إلقاءه في السجن مثل هذا الرجل.»

غادرنا نحن الأربعة الشقة، واستقل السيد جونز والسيد ميري ويزر إحدى العربتين، في حين ركبت أنا وهولمز العربة الأخرى. وصلنا سريعًا إلى المصرف الذي رأيناه بعد ظهر ذلك اليوم. أرشدنا السيد ميري ويزر إلى داخل المبنى، واتبعناه عبر مجموعة من الأبواب والأروقة، وهبطنا عددًا من درجات السلم. وأخيرًا دخلنا غرفة كبيرة مليئة بالصناديق.

أبدى هولمز ملاحظة قائلًا: «تبدو هذه الغرفة كمأمن رائع من اللصوص.»

قال السيد ميري ويزر، وهو ينقر بعصا المشي على الأرضية الحجرية: «إنها آمنة للغاية. ما هذا؟ تبدو الأرضية جوفاء!»

أمر هولمز غاضبًا: «رجاءً، الهدوء! وإلا سينفضح أمرنا جميعًا.» أخرج صديقي عدسته المكبرة وجثا على ركبتيه. أخذ يتفحص الأرضية بعناية، ثم وقف واستدار ناحيتي.

قال هولمز: «أظن يا واطسون أنك قد توصلت الآن إلى أننا في قبو مصرف سيتي آند سوبربن. ما لا تعلمه هو أن هذا المصرف قد تلقى شحنة كبيرة من الذهب من مصرف فرنسا. والصناديق الموجودة في هذه الغرفة مليئة بالذهب. وللأسف، لسنا وحدنا الذين نعلم بهذا الأمر. ولذلك نحن هنا الليلة.»

واستطرد قائلًا: «والآن سننتظر. اختبئوا من فضلكم خلف هذه الصناديق. يجب أن نكون متأهبين لأي شيء. هل معك مسدسك يا واطسون؟ رائع. إذا سمعت طلقًا ناريًّا، فلا تتردد في إطلاق النار ردًّا عليه.»

وضع هولمز غطاء المصباح عليه، وساد الظلام الغرفة. انتظرنا في صمت، وبدأت قدماي وذراعي تؤلمني وأنا منحنٍ خلف أحد الصناديق. انتظرنا أكثر من ساعة، لكن بدا الأمر لي أطول من ذلك بكثير.

فجأة، ظهرت شرارة ضوء خافتة تخرج من الأرضية، وصارت تزيد في الحجم حتى تمكنا من ملاحظة أنه ضوء يشع من حفرة في الأرضية. سحبت يد بشرية صخرة كبيرة جانبًا، ثم ظهر وجه رجل. دفع الرجل نفسه إلى الخارج واستدار ليساعد رجلًا آخر ذا رأس مليء بالشعر شديد الحُمرة.

في تلك اللحظة، هب شيرلوك هولمز من مكانه، وأمسك بالرجل الأول. قفز الرجل ذو الشعر الأحمر في الحفرة ثانية، ولم يتمكن جونز من الإمساك به. أخرج الرجل الأول مسدسًا، لكن هولمز أوقعه من يده، فسقط على الأرض محدثًا صوتًا عاليًا.

قال هولمز بهدوء: «لا فائدة يا جون كلاي. لقد أمسكنا بك.»

رد جون كلاي بابتسامة عابسة: «حسنًا، لكن شريكي تمكن من الفرار.»

قال هولمز: «على العكس، فهناك ثلاثة رجال شرطة بالجانب الآخر من هذا النفق الذي حفرته. وأنا متأكد أنهم قد أمسكوا به الآن. هل تتكرم يا سيد جونز، بتكبيل السيد كلاي بالأصفاد؟»

قال كلاي: «عليك أن تناديني بـ«يا سيدي»، إذا لم يكن لديك مانع. كما ستقول لي «رجاءً». فمع كل هذا تجري في عروقي دماء ملكية.»

قال جونز: «حسنًا، إذن هل تتكرم يا سيدي بالصعود خلفي إلى أعلى. فهناك عربة تنتظر جلالتك لتوصلك إلى مركز الشرطة.»

قال كلاي معتدًا بنفسه: «هذا أفضل.» وانحنى لثلاثتنا وبيتر جونز يأخذه بعيدًا.

بعد العودة إلى شارع بيكر، أمدني هولمز بتفاصيل القضية. «انظر يا واطسون، إن السبب وراء رابطة ذوي الشعر الأحمر كان واضحًا لي منذ البداية. فالرابطة ونسخ الموسوعة ما كانا سوى حُجة لإبعاد السيد ويلسون عن المحل بضع ساعات كل يوم.

أولًا، حرص السيد كلاي على الحصول على وظيفة لدى السيد ويلسون بأن عرض عليه العمل لديه في مقابل نصف الأجر، ثم نشر هو وشريكه ذو الشعر الأحمر إعلانًا في الجريدة. وحرص كذلك السيد كلاي على أن يرى السيد ويلسون الإعلان ويتقدم للوظيفة.»

سألته: «لكن كيف توصلت إلى ما كانا يخططان له؟»

«كنت أعلم أنه ما من شيء ذي قيمة في المحل نفسه. فتذكرت قول السيد ويلسون إن مساعده يقضي فترات طويلة من الوقت في القبو. في الواقع، لقد كان يقضي الكثير

من الساعات يوميًّا هناك. فأصبح من الواضح لي أنه يحفر نفقًا إلى مبنى آخر. وعندما خرج السيد كلاي ليفتح لنا الباب، أثبتت لي ركبتا سرواله المزقتان والمتسختان أنني كنت محقًّا.»

أكمل هولمز حديثه قائلًا: «يقع محل السيد ويلسون في شارع لا يوجد به سوى منازل. وكنت أعي أن كلاي لم يكن يحفر نفقًا إلى أي من هذه المنازل. وعندما نقرت بعصا المشي أمام المحل، كنت أتحقق من وجود نفق. وعندما لم أجده، علمت أن النفق بالخلف.

وأصبح السؤال حينئذٍ هو أين يتجه كلاي في حفره؟ عندما رأيت الشارع الموجود خلف المحل، لاحظت مصرف سيتي آند سوبربن على الفور. كان على الجانب المقابل مباشرة للجزء الخلفي من محل السيد ويلسون. وعلمت أن المصرف هو المستهدف من جهود السيد كلاي.»

سألته: «لكن كيف علمت أنهما سيتحركان الليلة؟»

أوضح هولمز: «أغلق كلاي وشريكه مكتب رابطة ذوي الشعر الأحمر، الأمر الذي أوضح لي أنهما لم يعودا بحاجة لابتعاد السيد ويلسون عن المحل، أي أنهما قد انتهيا من حفر النفق. رجحت بعد ذلك أنهما سينفذان مخططهما في أقرب وقت ممكن. وكنت موقنًا أنهما سيتحركان الليلة، فغدًا الأحد، وبذلك لن يلاحظ أحد السرقة حتى يفتح المصرف أبوابه صباح الثلاثاء. عندئذٍ سيكون السيد كلاي وشريكه والذهب قد اختفوا تمامًا.»

قلت معجبًا بما قاله: «أحسنت صنعًا، لقد كانت سلسلة طويلة من الأحداث بدءًا من إعلان الجريدة وصولًا إلى القبض على المجرمين الليلة. وقد كشفت ببراعة عن كل حلقة تربط كل حدث بالآخر. يجب أن يشعر أهالي لندن بالامتنان لك يا هولمز.»

قال هولمز، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بسيطة: «عزيزي واطسون، إنني لا أفعل ذلك من أجل الشكر، بل التحدي هو الذي يعنيني.»

مغامرة العقيق الأزرق

بعد يومين من عيد الميلاد، قررت زيارة شيرلوك هولمز. أردت أن أهنئه بالعيد. عندما وصلت إلى شارع بيكر، وجدت صديقي مسترخيًا على الأريكة، وتتدلى بجانبه قبعة متسخة قديمة وممزقة على ظهر أحد الكراسي. ورأيت عدسة مكبرة على مائدة بالقرب منه.

سألته: «أظن أن هذه القبعة تتعلق بجريمة ما؟»

فأجابني هولمز: «لا يا عزيزي واطسون. إنها ليست جريمة، بل واحدة من تلك الحوادث البسيطة والغريبة التي تحدث في مدينة كبيرة مثل لندن. لقد حصلت على هذه القبعة صباح عيد الميلاد من ضابط شرطة يُدعى بيترسون. قال لي إنه كان يسير عائدًا إلى المنزل ليلة عيد الميلاد عندما رأى رجلًا يرتدي هذه القبعة ويحمل إوزة على كتفه.»

قلت له: «لعشاء عيد الميلاد بالتأكيد.»

رد هولمز: «بالتأكيد يا واطسون. أوضح بيترسون بعد ذلك أن مجموعة من قُطاع الطرق ظهروا وبدءوا في مضايقة الرجل، ثم دفعوه وأسقطوا قبعته. حاول الرجل الدفاع عن نفسه بالتلويح بعصاه، فكسر نافذة أحد المتاجر بطريق الخطأ.

حينئذٍ جرى بيترسون لمساعدة الغريب المسكين. وعندما رأت العصابة بيترسون متقدمًا نحوهم، فروا. لكن ضحيتهم فرت أيضًا. ظن العجوز بالتأكيد أن بيترسون سيقبض عليه لكسره النافذة.

وهكذا، أصبح الضابط وحده مع القبعة والإوزة. كانت هناك ورقة مربوطة في الطائر، مكتوب عليها: «إلى السيدة هنري بيكر.» وتحمل القبعة الحرفين الأولين من الاسم: «هـ ب». لكن هناك بالتأكيد المئات ممن يحملون هذا الاسم في لندن، وسيكون من المستحيل العثور على هنري بيكر المراد وإعادة القبعة والإوزة إليه.»

استطرد هولمز: «بيترسون يعلم أنني أهتم بأبسط القضايا، فأحضر إلي هذه المتعلقات. ونظرًا لأنني لن أتمكن من الاحتفاظ بالإوزة إلى الأبد، عاد بيترسون وأخذها ليعدها على العشاء الليلة. وفي هذه الأثناء، كنت أستكشف أمورًا بشأن الرجل المجهول عن طريق دراسة هذه القبعة.»

صحت مندهشًا: «لكن ما الذي يمكنك معرفته من فحص قبعة؟»

أجاب هولمز: «أنت تعلم كيف أعمل يا واطسون. إليك عدستي المكبرة، أخبرني ما الذي يمكنك استكشافه عن الغريب الذي نتحدث عنه.»

أخذت القبعة وفحصتها. كانت قبعة سوداء عادية، لكنها بُليت مع الزمن. بهت لون البطانة الحريرية الحمراء. لاحظت الحرفين الأولين من الاسم «هـ ب» بداخلها. كانت هناك ثقوب في الحافة حيث يُستخدم رباط مرن لإحكام القبعة على رأس من يرتديها، لكن الرباط ليس موجودًا. كانت القبعة مشققة ومغبرة ومليئة بالبقع المهترئة التي استخدم أحدهم الحبر لإخفائها.

قلت لصديقي وأنا أعطيه القبعة: «لا يمكنني رؤية أي شيء.»

– «على العكس يا واطسون، أنت ترى كل شيء، لكنك لا تدرك معنى ما تراه.»

فسألته: «إذن ما الذي يمكنك إخباري به بشأن صاحب القبعة؟»

قال هولمز موضحًا: «منذ ثلاثة أعوام، كان صاحب القبعة رجلًا ثريًّا إلى حد ما. لكنه أصبح أكثر فقرًا منذ ذلك الحين. كان شخصًا دقيقًا، لكنه لم يعد كذلك. شيء ما تسبب في هذه التغييرات، ربما المقامرة. وربما يكون هذا هو السبب في أن زوجته لم تعد تحبه.

بالرغم من كل ذلك، لا يزال هذا الغريب يعنى بمظهره، لكنه لا يخرج كثيرًا. وهو شخص في منتصف العمر، ولا يتمتع بصحة جيدة. شعره رمادي اللون، قصه خلال الأيام القليلة الماضية، ويضع عليه كريمًا. وعلى الأرجح أنه يستخدم الشموع لإنارة منزله.»

قلت له: «من المؤكد أنك تمزح يا هولمز.»

– «على الإطلاق يا عزيزي واطسون. كانت هذه القبعة مسايرة لأحدث خطوط الموضة منذ ثلاثة أعوام، كما أنها غالية الثمن، مما يعني أن الغريب كان لديه بالتأكيد ما يكفي من المال لشرائها حينئذٍ. وقد علمت أنه لم يعد ثريًّا كما كان من قبل لأنه لا يمكنه تحمل تكاليف شراء واحدة جديدة الآن، على الرغم من أن قبعته أصبحت قديمة وبالية.

كما أنني علمت أنه كان دقيقًا فيما مضى، لأنه تكبد عناء تزويد القبعة برباط مرن، انقطع على الأرجح، ولم يستبدله لأنه لم يعد دقيقًا كما كان.»

استكمل هولمز حديثه قائلًا: «أما عن اعتنائه بمظهره، فيرجع إلى أنه يحاول إخفاء البقع المهترئة في القبعة بالحبر. انظر إلى البطانة وسترى آثار شعر صغيرة توضح سن صاحب القبعة ولون شعره. كما أنها تشير إلى أنه قد قص شعره مؤخرًا. ويمكنك كذلك شم رائحة كريم الشعر.»

تابع هولمز: «الغبار الموجود على القبعة ليس من النوع الذي يوجد خارج المنزل، بل الذي يتجمع داخله. ويشير إلى أن الرجل يقضي وقتًا أطول في المنزل مقارنة بأي مكان آخر. كما أن علامات التعرق الموجودة داخل القبعة تشير إلى أن الرجل يعرق حتى أثناء السير، مما يعني أنه ليس لائقًا بدنيًّا.»

قاطعته قائلًا: «لكنك قلت أيضًا إن زوجته لم تعد تحبه.»

رد هولمز: «لم تُنظف هذه القبعة منذ أسابيع. مَن الزوجة المحبة التي تترك زوجها يغادر المنزل وقبعة مغبرة كهذه على رأسه؟»

قلت له: «لكنه ربما يكون أعزب؟»

– «لقد نسيت الملاحظة المرفقة بالإوزة، المكتوب فيها: «إلى السيدة هنري بيكر.»»

– «فهمت. لكن كيف لك أن تعرف أنه ينير منزله بالشموع وليس بالغاز؟»

أجاب هولمز: «هناك الكثير من بقع الشمع على قبعته، التي ما كنا لنراها لو كان ينير منزله بالغاز.»

في تلك اللحظة انفتح الباب فجأة ودخل ضابط الشرطة بيترسون مندفعًا، وصاح قائلًا: «سيد هولمز! انظر ماذا وجدت زوجتي داخل الإوزة وهي تعد العشاء!» ومد بيترسون يده نحونا وبداخلها حجر كريم جميل أزرق اللون. كان أصغر قليلًا من حبة الفول، لكنه كان يلمع ويتلألأ كنجم أزرق براق.

صاح هولمز مندهشًا: «سيد بيترسون! يمكنني التعرف على هذا الحجر، إنه جوهرة العقيق الأزرق الثمينة التي تمتلكها كونتيسة موركار!»

سألته: «هل تعني الجوهرة التي سُرقت؟»

وكانت إجابة هولمز: «نعم يا واطسون. لقد فُقدت منذ خمسة أيام فقط، في فندق كوزموبوليتان. وقد قرأت عن الموضوع في الجريدة. ألقت الشرطة القبض على سباك يُدعى جون هورنر، واتهمته بسرقة الجوهرة.

يبدو أن جيمس رايدر، مدير الفندق، قد ترك هورنر في غرفة الكونتيسة لإصلاح السباكة. وعندما عاد السيد رايدر، كان السباك غير موجود والجوهرة قد اختفت. وجاءت

رواية كاثرين كوزاك، خادمة الكونتيسة، مطابقة لذلك. بدأت الشرطة جهودها على الفور، وقبضت على هونر في تلك الليلة. لم يعثروا على الجوهرة المفقودة، ويصر السباك على أنه بريء.»

استكمل هولمز حديثه قائلًا: «إذن، كيف وصلت الجوهرة من الكونتيسة إلينا؟ نعلم أنها جاءت من الإوزة، التي يمتلكها هنري بيكر. أعتقد أن أول خطوة هي أن نعثر على السيد بيكر، ويمكننا فعل ذلك عن طريق وضع إعلان في الجريدة.»

أخذ هولمز ورقة وقلمًا، وتحدث أثناء كتابته قائلًا: «عُثر على إوزة وقبعة سوداء تخصان السيد هنري بيكر بإحدى نواصي شارع جوودج. الرجاء الحضور إلى بناية رقم ٢٢١ب شارع بيكر للحصول عليهما الساعة السادسة ونصف من مساء اليوم.»

قال هولمز: «والآن يا سيد بيترسون، هل تتكرم بفعل أمرين من أجلي؟ لتأخذ هذا الإعلان وتضعه في جميع الصحف المسائية. ثانيًا، رجاءً أحضر لي إوزة أخرى للسيد بيكر!»

عندما غادر بيترسون حمل هولمز الجوهرة في الضوء، وقال: «أُكتشف هذا الحجر يا واطسون منذ عشرين عامًا فقط. وقد عُثر عليه على ضفاف نهر أموي جنوب الصين. ويحمل قيمة كبيرة لأن أغلب الأحجار المماثلة له تحمل لونًا أحمر ياقوتيًّا، وليس أزرق. وكما هي الحال مع جميع الأحجار الكريمة، تترك هذه الجوهرة آثار جريمة في أي مكان توجد به. وقعت بالفعل جريمتا قتل والعديد من السرقات بسببها حتى الآن. سأضعها في مكان آمن، وأخبر الكونتيسة أن حجرها الكريم معنا.»

سألته: «وماذا ستفعل بشأن جون هورنر السباك؟ وهنري بيكر؟»

– «لا أعلم أي شيء عن هورنر يا صديقي، ولا أعتقد أن السيد بيكر مذنب بأي شيء. لكننا سنتحقق من ذلك عندما يستجيب للإعلان الذي نشرناه. أرجو أن تنضم إلي الليلة يا واطسون. فإن أسعدنا الحظ، فسنتمكن من سؤاله عن طائره.»

حضر هنري بيكر إلينا ذلك المساء بحثًا عن إوزته الضائعة. كان رجلًا ضخمًا ذا وجه عريض ولحية بنية اللون. أعطاني انطباعًا أنه رجل مثقف، لكن ملابسه الرثة أوضحت أنه مر بأوقات عصيبة.

بدأ هولمز الحديث قائلًا: «أتساءل لماذا لم تنشر إعلانًا عن متعلقاتك المفقودة في الجريدة؟»

رد بيكر: «حسنًا يا سيد هولمز، لم أعد أملك من المال ما كنت أملكه من قبل، وكنت موقنًا أن اللصوص هم من سرقوا الإوزة. فرأيت أن الدفع مقابل إعلان مضيعة للمال.»

قال صديقي: «إنني أتفهم. بالمناسبة يا سيد بيكر، يؤسفني أننا قد أكلنا إوزتك. كانت ستفسد لو انتظرنا طويلًا ...»

تأوه زائرنا وبدت عليه خيبة أمل شديدة.

أشار هولمز إلى الطائر الموجود على الطاولة، وقال: «لكن لا تقلق، لقد اشترينا لك واحدة أخرى. ولا يزال لدينا بالطبع ريش إوزتك وعظامها، إذا كنت ترغب في الحصول عليها.»

ضحك السيد بيكر وهو يقول: «لم قد أرغب في ذلك الآن؟ كلا، سوف آخذ هذه الإوزة فحسب، وأمضي في سبيلي.»

قال هولمز، وهو ينظر إليّ رافعًا حاجبيه: «عظيم! بالمناسبة يا سيد بيكر، تُرى هل يمكنك إخباري من أين أتيت بطائرك اللذيذ؟ فأنا أود أن أعلم أين يمكنني الحصول على واحد مثله.»

فقال: «حسنًا يا سيد هولمز. اعتاد بعضنا ارتياد حانة ألفا، وأقام صاحب الحانة ما يُعرف بـ«نادي الإوز». فكنا جميعًا ندفع كل أسبوع على مدار العام الماضي مبلغًا صغيرًا من المال، حتى أصبح لدى كل منا ما يكفيه لشراء إوزة لعيد الميلاد. وهكذا حصلت عليها، والآن، إن لم تمانعا، سآخذ هذا الطائر واستمتع أخيرًا بعشاء عيد ميلاد فاخر.»

بعد أن تركنا الزائر، اتبعت أنا وهولمز هذا الخيط، فغادرنا قاطعين طرقات لندن الباردة وصولًا إلى حانة ألفا. وهناك وجدنا طاولة هادئة، وطلبنا من صاحب الحانة كأسين من نبيذ التفاح الساخن.

قال هولمز: «أرجو أن يكون ما تقدمه من نبيذ جيدًا مثل ما لديك من إوز.»

قال صاحب الحانة وهو يصب المشروب الساخن: «ما لديّ من إوز؟»

– «نعم، لقد كنت أتحدث لتوي مع السيد هنري بيكر بشأنه.»

قال صاحب الحانة: «آه، حسنًا، أنا لا أملك هذا الإوز، لقد حصلت عليه من رجل يُدعى بريكنبريدج بسوق كوفينت جاردن.»

أنهيت أنا وهولمز مشروبنا، وتوجهنا إلى سوق كوفينت جاردن. عثرنا على السيد بريكنبريدج، وكان حينها يغلق لتوه الكشك الذي يبيع فيه سلعه.

قال هولمز لبريكنبريدج: «أرى أن بضاعتك قد نفدت. يا للحظ السيئ! هل يمكنك إخباري من أين تحصل على الطيور التي تبيعها؟»

فوجئنا بأن سؤال هولمز قد أغضب بائع الطيور، فقال بصوت مرتفع: «والآن يا سيد، ما الذي ترمي إليه؟ لست أول من يزعجني اليوم بشأن الإوز الذي أبيعه. «من أين جلبته؟ ولمن بعته؟» لم أسمع في حياتي قط جلبة كهذه تُثار حول طائر.»

قال هولمز: «آسف، كل ما في الأمر أنني قد راهنت على أن هذا الإوز قد رُبي في الريف.»

قال بريكنبريدج: «حسنًا، لقد خسرت الرهان إذن؛ لقد رُبي هذا الإوز في المدينة. انظر إلى سجلي، إنه يوضح ممن اشتريت الإوز، ولمن بعته. وقد ربت سيدة تُدعى أوكشوت الطيور التي بعتها لحانة ألفا. ومذكور هنا أنها تعيش في شارع بريكستون بلندن!»

تركت أنا وهولمز السيد بريكنبريدج ليستكمل إغلاق الكشك. وقفنا في الشارع نفكر فيما إذا كان سيجب علينا زيارة السيدة أوكشوت على الفور أم الانتظار حتى الصباح. سمعنا حينئذٍ صياحًا. كان مصدره السيد بريكنبريدج. كان يصيح في وجه رجل صغير الحجم قائلًا: «توقفوا عن إزعاجي! لقد نلت كفايتي من الأسئلة اليوم عن الإوز الذي أبيعه! لتذهب وتسأل السيدة أوكشوت عن إوزها!» ثم استدار وابتعد ضاربًا الأرض بقدميه في غضب.

توجه هولمز إلى الرجل صغير الحجم، وقال له: «عذرًا، اسمي شيرلوك هولمز، وأعتقد أن بإمكاني أنا وصديقي مساعدتك. أرى أنك تبحث عن بعض الإوز. لقد باعته السيدة أوكشوت للسيد بريكنبريدج، الذي باعه بدوره لحانة ألفا. ومن الحانة انتقلت واحدة من هذا الإوز للسيد هنري بيكر.»

صاح الرجل: «سيد هولمز، لا يمكنك تخيل كم هو مهم أن أعثر على إوزتي.»

قال هولمز: «في هذه الحالة، أرجو أن تحضر إلى مسكني حيث يمكننا التحدث يا سيد ...؟»

أجاب الغريب: «اسمي جون روبنسون.»

قال هولمز وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة: «لا، لا، أنا أعني اسمك الحقيقي. أنا مصرٌّ على معرفته.»

تورَّد وجه الغريب، وبدا عليه الانزعاج، وقال: «حسنًا، اسمي الحقيقي هو جيمس رايدر.»

قال هولمز: «هذا أفضل، أفضل بكثير يا سيد رايدر، مدير فندق كوزموبوليتان.»

وفي مسكننا أخذت أنا وهولمز ورايدر ندفأ أنفسنا بجانب المدفأة. بدأ هولمز الحديث قائلًا: «والآن يا سيد رايدر، ترغب في معرفة مكان إوز السيدة أوكشوت، أو بالأحرى، إوزة واحدة بعينها، تلك الإوزة البيضاء ذات العلامة السوداء على ذنبها.»

صاح جيمس رادير قائلًا: «نعم، هل يمكنك إخباري أين ذهبت؟»

«لقد أتت إلى هنا، وكانت إوزة مميزة بحق. في الواقع، لقد وضعت بيضة بعد أن ذُبحت. وكانت بيضة زرقاء صغيرة يفوق بريقها أية بيضة أخرى.» ومد هولمز يده عارضًا على ضيفنا جوهرة العقيق الأزرق. حدق رايدر بها، وهب من على كرسيه وقد شحب وجهه.

صاح هولمز معلنًا: «لقد قُضي الأمر يا رايدر. فأنا أعلم معظم ما حدث. وقد تحسن الشرطة معاملتك إذا أخبرتنا الآن بما تعرفه.»

بدا رايدر وكأنه سيُغشى عليه، فساعدته في الاعتدال مرة أخرى على كرسيه، وقال: «إنها كاثرين كوزاك، خادمة الكونتيسة. هي من أخبرتني بشأن الجوهرة.»

قال هولمز: «وقررت أن تسرقها. كنت تعلم أن جون هورنر، السباك، لديه مشكلات سابقة مع الشرطة؛ فخططت لوجوده في غرفة الكونتيسة، وعندما غادر سرقت الجوهرة، ثم اتصلت بالشرطة وأخبرتهم بأمر هورنر، فألقوا القبض عليه.»

قال رايدر متوسلًا: «لترحمني، أرجوك يا سيد هولمز! فلم أتورط من قبل في أية مشكلات، ولن أكرر فعلتي ثانيةً! أرجوك!»

قال هولمز: «حقًّا يا سيد رادير، أتطلب العفو؟ لكنك كنت على استعداد أن ترسل السيد هورنر إلى السجن لجريمة ارتكبتها أنت. كفى! لتخبرنا ببقية القصة.»

تابع رايدر رواية ما حدث: «عند القبض على هورنر، خشيت أن تستجوبني الشرطة، وأن يفتشونني بحثًا عن الجوهرة. فذهبت إلى منزل أختي ...»

قال هولمز: «السيدة أوكشوت.»

رد رادير: «نعم، ذهبت إلى هناك وفكرت فيما سأفعله بعد ذلك. تذكرت صديقًا قديمًا كان قد قضى بعض الوقت في السجن. كنت أعلم أنه قد يساعدني في بيع الجوهرة، فقررت أن أذهب إلى كيلبورن حيث يعيش. لكن ظل القلق يساورني بشأن عثور الشرطة على الجوهرة معي.

كنت أجلس في الفناء الخلفي بمنزل أختي، وكان مليئًا بالإوز الذي تربيه. وهكذا جاءتني الفكرة. وعدتني أختي بالحصول على أحد تلك الطيور هدية بمناسبة عيد الميلاد. فقررت أن أحشر جوهرة العقيق أسفل حلق الإوزة، ثم آخذها معي. وإذا استوقفتني الشرطة، فلن يخطر ببالهم أبدًا فحص الإوزة.

أمسكت بأحد الطيور، وكانت تلك الإوزة ذات العلامة السوداء على ذنبها. فتحت منقارها، وحشرت الجوهرة أسفل حلقها. خرجت أختي من المنزل، وسألتني عما كنت

أفعله. وفي تلك اللحظة، أفلتت الإوزة من بين يدي، ورفرفت عائدةً بين باقي الإوز. قلت لها إنني سآخذ هدية عيد الميلاد، فأمسكت بها وذبحتها. وذهبت إلى كيلبورن.»

تابع رايدر حديثه: «لك أن تتخيل فزعي عندما فتحت الطائر أمام صديقي، ولم أعثر على شيء. وقع خطأ جسيم، فأسرعت عائدًا إلى المدينة، هرولت إلى منزل أختي، واندفعت إلى الفناء الخلفي لأجد أن كل الطيور قد اختفت. لقد أرسلتها إلى التاجر المدعو بريكنبريدج. سألتها عما إذا كانت هناك إوزة أخرى ذات علامة سوداء على ذنبها، وجاءت إجابتها بالإيجاب. لقد أخذت الإوزة الخطأ!

ركضت إلى سوق كوفينت جاردن بأقصى سرعة، لكن لم يخبرني بريكنبريدج أين ذهبت إوزتي؛ ولهذا السبب أنا هنا الآن. لقد ارتكبت جريمة بشعة.» وأخذ رايدر يبكي بحرقة، وهو يدس وجهه بين يديه.

ساد الصمت فترة طويلة، وأخذ هولمز ينقر بأظافره على الطاولة، ثم نهض وفتح الباب المطل على الشارع، وقال: «اخرج!»

وفي لمح البصر، اندفع رايدر مسرعًا من الباب، واختفى في ظلام الليل.

قال هولمز: «ربما أكون بذلك أرتكب خطأً، لكنني لا أظن أن السيد رايدر سيخرق القانون ثانيةً. كما أن هورنر سيُطلق سراحه، وستعود جوهرة العقيق الأزرق إلى صاحبتها. وفي نهاية الأمر، نكون قد أنقذنا الرجل من قضاء حياته في السجن.»

واستكمل هولمز حديثه قائلًا: «وفي النهاية، فقد تمكننا من فك لغز قضية غاية في الإثارة، ويرجع الفضل في ذلك إلى هذا الرجل الأحمق … أليس كذلك يا عزيزي واطسون؟»

مغامرة العِصابة المنقَّطة

همس هولمز، وهو يقف بجواري: «آسف لإيقاظك يا واطسون. لكن لدينا زائر، هناك سيدة شابة في غرفة الجلوس ترغب في رؤيتنا. وأنا موقن أن الأمر هام لمجيئها في هذا الوقت. هل تود الانضمام إليَّ؟»

أجبته بنعاس: «عزيزي هولمز، لا يمكنني أن أفوت هذه الفرصة لأي سبب.»

كنت أمكث مع هولمز في تلك الليلة، نظرًا لوجود زوجتي خارج المدينة. وقد كنت أستمتع دائمًا بمساعدة زميلي فيما يجريه من تحقيقات. كانت مشاهدته وهو يجمع الأدلة، ويستخدمها في حل الجرائم أمرًا مذهلًا. ارتديت ملابسي سريعًا ولحقت به في غرفة الجلوس. رأينا امرأة ترتدي حجابًا أسود تغطي به وجهها.

بدأ رفيقي الحديث قائلًا: «صباح الخير يا سيدتي. اسمي شيرلوك هولمز، وهذا دكتور واطسون، صديقي وشريكي. كيف يمكننا مساعدتك؟»

رفعت المرأة الحجاب من على وجهها، وتمكننا من ملاحظة شحوبها وانزعاجها. بدأت الحديث قائلةً: «إنني خائفة للغاية يا سيد هولمز.»

قال هولمز محاولًا طمأنتها: «سنبذل أقصى جهدنا لمساعدتك. ألاحظ أنك قد سافرت إلى لندن بالقطار هذا الصباح، وأنك قد وصلت إلى محطة القطار في عربة تجرها الخيول.»

سألت ونظرة الدهشة ترتسم على وجهها: «كيف عرفت ذلك؟»

أوضح هولمز: «تظهر تذكرة العودة من ثنية قفازك، كما أن الكُم الأيسر لمعطفك ملطخ بقطرات وحل حديثة، وما كان ليتلطخ بها سوى عن طريق الجلوس بالجانب الأيسر لعربة مفتوحة.»

فردت: «أنت محق. لقد سافرت كل هذه المسافة لأنني سأجن يا سيد هولمز. ليس لدي من ألجأ إليه، يجب أن تساعدني.»

استرخى هولمز على كرسيه، وأغلق عينيه، وأنصت: «رجاءً يا سيدتي، أخبرينا بمشكلتك.»

– «أُدعى هيلين ستونر، وأعيش مع زوج والدتي، دكتور جريمسبي رويلوت. وهو آخر أفراد إحدى الأسر العريقة، التي كانت تتمتع بالثراء في الماضي. لكن مع مرور السنوات، فقد آل رويلوت ثروتهم، وكل ما تبقى هو منزل العائلة: ستوك موران.

كان زوج والدتي يعيش في الهند منذ سنوات، وكان طبيبًا ناجحًا هناك. وهناك التقى بوالدتي، وتزوجها. لم أكن قد تجاوزت حينها أنا وأختي التوءم، جوليا، الثانية من العمر.»

تابعت قائلةً: «بدأت مشكلات زوج والدتي في الهند. ففي نوبة غضب، تورط في عِراك، وقتل أحد الأشخاص، وقضى سنوات طوال في السجن. وعند إطلاق سراحه، انتقلنا إلى إنجلترا، حيث عاد لمزاولة مهنة الطب، لكنه صار شخصًا مختلفًا عندئذ.

بعد عودتنا بفترة قصيرة، توفيت والدتي، تاركةً كل أموالها لزوجها، على أن أحصل أنا وأختي على بعض منها، لكن عندما نتزوج. وبرحيل والدتي تركنا لندن وانتقلنا للعيش في قصر ستوك موران.»

ازداد انزعاج الآنسة ستونر وهي تستكمل قصتها. فقالت: «أصبح زوج والدتي أكثر اضطرابًا بعد ذلك. وازداد حدة في طباعه، وأُلقي القبض عليه لاحقًا بتهمة الشجار. أصبح الناس يخافونه، واقتصر أصدقاؤه على مجموعة من المسافرين الفقراء الذين كانوا يجوبون الريف، ويزورون في بعض الأحيان ستوك موران. وكان يسمح لهم في كثير من الأحيان بالتخييم في الغابة القريبة من المنزل.

أخذ سلوكه يزداد غرابة كل يوم. كان يحب الحيوانات البرية، فجلب معه من الهند فهدًا وقرد بابون، وتركهما يركضان بجموح في الغابة المحيطة بمنزلنا.

صرت أنا وأختي جوليا تعيستين. ولم يعد هناك خدم يرغبون في البقاء معنا، فتوليت أنا وهي الاهتمام بهذا المنزل الكبير بأنفسنا. كان الأمر عسيرًا علينا للغاية، وكانت جوليا في الثلاثين من عمرها عندما توفيت، لكنها بدت أكبر من ذلك بكثير.»

سأل هولمز: «هل توفيت أختك؟»

أجابت زائرتنا: «نعم، لقد توفيت منذ عامين. ووفاتها هذه هي الأمر الذي أود الحديث معك بشأنه. قبل هذا الحادث المؤسف مباشرةً، عُقدت خطبة جوليا، ولم يعارض زوج والدتي. لكن قبل الزواج مباشرةً، حدث شيء مريع.»

عندما سمع هولمز ذلك، فتح عينيه، ونظر إلى زائرتنا، وقال: «لا تتجاهلي أي تفاصيل.»

تابعت الآنسة ستونر حديثها: «عشت أنا، وزوج والدتي، وأختي في جزء واحد فقط من هذا المنزل القديم. وكانت غرفة جوليا تقع بين غرفتي وغرفة زوج والدتي في الطابق الرئيسي. ليست هناك أبواب تصل بين الغرف مباشرة، لكنها تشترك جميعًا في الرواق ذاته. ونوافذ الغرف تطل على الفناء.

في تلك الليلة منذ عامين، كان ثلاثتنا في غرفنا. وكنت لا أزال مستيقظة عندما أتت أختي إلى غرفتي. قالت إنها تشم دخان سجائر زوج والدتي، الأمر الذي كان يزعجها. فجلسنا، وتحدثنا عن زفافها حتى الساعة الحادية عشرة تقريبًا. وحينئذٍ نهضت لتعود إلى غرفتها.

وعندما كانت جوليا تهم بالرحيل، سألتني عما إذا كنت قد سمعت صوت صفير أثناء الليل. وأخبرتني أنها سمعت صوتًا كهذا على مدار الليالي القليلة الماضية، لكنها لم تعلم من أين أتت هذه الضوضاء.

قلت لها ربما يكون المصدر هو المسافرين الذين كانوا يخيمون بالقرب من المنزل. وقد كان نومي أعمق من نومها، الأمر الذي يفسر عدم سماعي لأي شيء. وبعد ذلك ألقت كلٌّ منا على الأخرى تحية المساء، وعادت أختي إلى غرفتها وسمعتها وهي تغلق الباب بالقفل.»

سأل هولمز: «هل اعتدتما إغلاق بابيكما بالقفل؟»

أجابت آنسة ستونر: «نعم، كنا خائفتين من حيوانات زوج والدتنا البرية.»

قال هولمز: «تابعي.»

فتابعت حديثها: «حسنًا، لم أتمكن من النوم في تلك الليلة، وظللت مستيقظة في السرير لساعات، وفجأة سمعت جوليا تصرخ، فقفزت من على سريري وركضت إلى الرواق. في تلك اللحظة، سمعت صوت صفير منخفضًا، تبعه صوت رنين عالٍ.

وفي الرواق، شاهدت باب غرفة نوم جوليا وهو ينفتح، وأختي الحبيبة تخطو خارج غرفتها ببطء. رأيت الرعب في عينيها. بالكاد تمكنت من الوقوف، وأخذت تتحرك وكأنها متألمة. جريت نحوها وهي تقع على الأرض. وعندما كنت أحملها بين ذراعي، صاحت قائلةً: «هيلين! إنها العِصابة! العِصابة المنقَّطة!» مدت إحدى يديها، وأشارت إلى غرفة زوج والدتنا. ناديت عليه، وظهر سريعًا، لكن لم يكن هناك ما يمكننا فعله. وفي تلك الليلة، ماتت جوليا.»

سأل هولمز: «وهل أنت متأكدة من سماعك للصفير وصوت الرنين المعدني؟»

أجابت الآنسة ستونر: «أعتقد ذلك.»

سأل هولمز: «بالتأكيد فحص أحد الأطباء جثمان أختك، فإلام توصل؟»

– «كان على علم بحدة طباع زوج والدتنا يا سيد هولمز، وكان حذرًا للغاية، لكنه لم يتوصل إلى ما قتل جوليا. لا يزال الأمر لغزًا. فنحن نعلم أن جوليا قد أغلقت النوافذ وباب غرفة النوم بالأقفال، وفتشنا الغرف بعناية، لكن لم نتمكن من العثور على أي مداخل خفية. من المؤكد أن أختي كانت وحدها عندما لقيت حتفها. هذا إلى جانب عدم وجود أي علامات على جسمها.»

سأل هولمز: «ماذا عن إمكانية استخدام سُم ما؟»

أجابت: «لم يجد الطبيب أثرًا له، وأعتقد أن أختي عندما ذكرت كلمة «عِصابة»، كانت تعني «عِصابة» من الناس، كعِصابة المسافرين.

كان ذلك منذ عامين، وقد جئت لمقابلتك يا سيد هولمز، لأن خطبتي قد عُقدت منذ شهر. ولم يعارض زوج والدتي هذه المرة أيضًا، ومن المقرر أن أتزوج هذا الربيع.»

تابعت الحديث، وقد ارتسمت على وجهها نظرة خوف: «لكن منذ يومين، بدأ إجراء إصلاحات ببعض جدران المنزل. ونظرًا لهذه الإصلاحات، كان لزامًا عليَّ الانتقال إلى غرفة نوم أختي. وكما يمكن أن تتخيل لم أشعر بالراحة. وليلة أمس، بينما كنت مستلقية على السرير، سمعت صوتًا مفاجئًا، كان صوت صفير منخفضًا! قفزت من على السرير، وأضأت مصباحًا. لم أر أي شيء، لكنني كنت خائفة حتى إنني ارتديت ملابسي، ولم أجرؤ على العودة إلى السرير. وفي الصباح غادرت المنزل، وأتيت إلى لندن لألتمس مساعدتك.»

قال صديقي: «أحسنت صنعًا! لكنك يا آنسة ستونر، لم تخبريني بكل شيء عن زوج والدتك.»

سألت: «ماذا تعني؟»

أمسك هولمز بيد الفتاة بين يديه، ورفع معصمها. كانت هناك علامات على بشرتها وكأن يدًا شديدة القوة قد أمسكت بها. خفضت زائرتنا رأسها، وقالت: «إنه رجل مضطرب يا سيد هولمز.»

صمت صديقي، وحدق في النار التي كانت تدفأ الغرفة، وأخيرًا قال: «ليس أمامنا وقت لنضيعه. إذا أتينا إلى منزلك — يا آنسة ستونر — اليوم، فهل سيمكننا تفقد الغرف دون أن يعلم زوج والدتك بالأمر؟»

فأجابت: «نعم، فهو يزور لندن اليوم، ولن يكون في المنزل.»

– «حسنًا، سأستقل إذن أنا وواطسون القطار، ونلقاك هناك بعد ظهر اليوم.»

قالت: «شكرًا لك يا سيد هولمز. لقد بدأت أشعر بتحسن بالفعل. والآن، إذا كان ذلك كل ما في الأمر، فسوف أراك بعد ظهر اليوم.» أسدلت زائرتنا الحجاب على وجهها، ورحلت.

قلت لهولمز: «هذه قضية غريبة وخطيرة يا هولمز. فمن واقع كل ما سمعناه، من المؤكد أن أخت الآنسة ستونر كانت بمفردها عندما قُتلت. لكن ما صوت الصفير؟ وما معنى الكلمات الأخيرة للمتوفاة؟»

بدأ رفيقي حديثه قائلًا: «يبدو لي أن الأمر يتعلق بعِصابة المسافرين. كما أنه من الواضح أن دكتور رويلوت سيخسر أموالًا إذا تزوجت ابنتا زوجته، لذا فهو لا يرغب في ذلك. أما عن الرنين المعدني، فربما يكون سببه المزلاج عند فتح النافذة.»

قلت له: «لكن إذا كان الأمر كذلك، فكيف إذن قتل المسافرون الآنسة ستونر؟ لا يبدو الأمر منطقيًّا ليَّ.»

– «أتفق معك يا واطسون، ولذلك يجب علينا زيارة ستوك موران اليوم.»

وفي تلك اللحظة، فُتح الباب فجأة، واندفع رجل ضخم إلى داخل الغرفة. نظر إليَّ وإلى هولمز، وغضب شديد يرتسم على وجهه.

صاح قائلًا: «أيكما هولمز؟»

أجاب هولمز بهدوء: «أنا هولمز، من أنت؟»

صاح الرجل: «أنا دكتور جريمسبي رويلوت. لقد علمت أن ابنة زوجتي كانت هنا، وأنا أعلم أنك يا سيد شيرلوك هولمز شخص مثير للمتاعب. ماذا قالت لكما؟»

ضحك هولمز، وقال: «رجاءً، أغلق الباب وأنت تخرج من هنا يا دكتور رويلوت؛ فالطقس بارد بالخارج.»

«سأغادر عندما انتهي من أمرك. أنا رجل قوي يا سيد هولمز. من الأفضل ألا تتدخل في شئون الغير، وإلا ...!» وأمسك رويلوت بقضيب تذكية النار المعدني من المدفأة، وحمله بين يديه، وثناه وكأنه من المطاط. وألقى بهذه القطعة المعدنية في المدفأة، ورمقنا بنظرة أخيرة، ثم اندفع مغادرًا المكان.

بدأ هولمز الحديث قائلًا: «حسنًا يا واطسون. لقد ازداد التحقيق إثارة. كل ما أتمناه ألا تعني زيارة الدكتور لنا مزيدًا من الخطر للآنسة ستونر. أعتقد أننا يجب أن نتوجه إلى

ستوك موران على الفور. لنذهب إلى محطة القطار. وأعتقد يا واطسون، أنه من الأفضل أن تحضر سلاحك؛ فلا أود أن يفعل دكتور رويلوت بنا ما فعله بالقضيب المعدني.»

استقللت أنا وهولمز القطار من لندن إلى مدينة ليزيرهيد. ومن هناك ركبنا عربة تجرها الخيول. لكن قبل وصولنا إلى ستوك موران، رأينا الآنسة ستونر تسير عبر أحد الحقول متجهة إلى الطريق. لقد جاءت من منزلها المحفوف بالمخاطر للقائنا.

قالت لنا بعد أن رحلت العربة: «أنا سعيدة للغاية لوجودكما هنا. لا يزال دكتور رويلوت في المدينة، ولن يعود إلا بعد فترة.»

قال هولمز: «لقد سعدنا بمقابلة زوج والدتك! لقد جاء لزيارتنا بعد أن غادرت.»

صاحت خائفة: «هل تعني أنه كان يتبعني؟»

أجاب هولمز: «نعم، يجب علينا توخي الحذر الشديد، كما يجب أن نفحص الغرف فلا تزال لدينا الفرصة لذلك.»

كان ستوك موران قصرًا قديمًا رمادي اللون مشيدًا من الحجارة. بدا أحد جانبي المنزل فارغًا، وكانت النوافذ الموجودة بذلك الجانب مكسورة ومغطاة بالألواح الخشبية. أما الجانب الآخر، فيبدو أنه كان يُعتنى به. ويشير الدخان المتصاعد من المداخن إلى أن الأسرة كانت تعيش في هذا الجزء من المنزل.

قال هولمز، وهو يشير إلى ثلاث نوافذ: «أرى أن هذه هي نوافذ غرف النوم: غرفة الدكتور، ثم غرفة أختك، ثم غرفتك، أليس كذلك؟»

أجابت آنسة ستونر: «بلى، ويمكنك أن ترى أين كان يعمل العمال. لكنني لا أعتقد يا سيد هولمز أن هذه الأعمال كانت ضرورية. أظن أنها كانت وسيلة لجعلي أنام في غرفة نوم أختي.»

قال رفيقي: «هذا أمر مثير للغاية. رجاءً يا آنسة ستونر، ادخلي غرفة نوم أختك، وسأظل أنا وواطسون هنا بالخارج، وتأكدي من قفل النافذة.»

دخلت الفتاة، وأخرج هولمز سكينًا من جيبه، وحاول فتح النافذة من الخارج. وعندما لم يستطع، استخدم عدسته المكبرة لفحص مفصلات النافذة وإطارها. وأخيرًا قال: «لا، لا يمكن لأحد الدخول عبر هذه النوافذ. لنستكمل يا واطسون بحثنا عن أدلة بالداخل.»

انضممنا إلى الآنسة ستونر في غرفة أختها. جلس هولمز على أحد الكراسي، ودرس بعناية كل شيء حوله. كان هناك حبل معلق من السقف، ويصل إلى السرير. كان كالحبال التي تُستخدم لرن جرس ما، إشارة لاستدعاء الخدم. وكان طويلًا حتى إن طرفه وصل إلى الوسادة.

سأل هولمز: «أين الجرس الذي يُرن باستخدام هذا الحبل؟»
أجابت آنسة ستونر: «في غرفة مدبرة المنزل.»
أبدى هولمز ملاحظة قائلًا: «يبدو جديدًا، هل طلبته أختك؟»
– «لم يمض على وجوده سوى عامين، لكن لا، لم تطلبه أختي.»

قال هولمز: «أتساءل لم قد يحتاج المرء إلى حبل جرس كهذا هنا؟» ونهض من على الكرسي، وأخرج عدسته المكبرة مرة أخرى، وجثا على ركبتيه ويديه. وأخذ يزحف جيئة وذهابًا على الأرضية بحثًا عن أدلة، ثم فحص الجدران بالطريقة ذاتها.

سار هولمز إلى السرير، وفحص حبل الجرس. وأخيرًا، أمسك به وسحبه، وقال: «لماذا لا يعمل؟ إنه معلق بخطاف في السقف، ولا يرن أي جرس على الإطلاق، هذا مثير للغاية. كما أن فتحة التهوية الموجودة في السقف غريبة.» وأشار إلى فتحة صغيرة بجوار المكان الذي يتصل فيه حبل الجرس بالسقف، ثم سأل: «هل كانت فتحة التهوية موجودة هنا من قبل يا آنسة ستونر؟»

فأجابت: «كلا، لقد وُضعت في الوقت نفسه تقريبًا الذي وُضع فيه حبل الجرس.»

تفقدنا بعد ذلك غرفة نوم دكتور رويلوت. وفحص هولمز بعناية السرير، ورفًّا للكتب، وكرسيًّا بمسندين موجودًا بجانب السرير، وطاولة، وخزانة معدنية كبيرة. ولاحظ وجود طبق به لبن على الخزانة.

سأل هولمز: «هل لدى دكتور رويلوت قطة؟»
أجابت آنسة ستونر: «كلا.»

انحنى صديقي بعد ذلك وفحص الكرسي الخشبي، وقال أثناء نهوضه: «نعم، هكذا الأمر إذن. لكن انتظرا، ما هذا؟» وأشار إلى حبل معقود على أحد أعمدة السرير. «يا له من عالم لعين يا واطسون! خاصةً عندما يتحول رجل زكي إلى مجرم. لقد رأيت ما يكفي يا آنسة ستونر. لنترك هذه الغرف.»

وما إن خرجنا حتى استدار هولمز إلى الفتاة، وقال لها: «من المهم للغاية أن تفعلي كل ما أخبرك به، فقد تتوقف حياتك على ذلك. عندما يعود دكتور رويلوت، يجب أن تبقي في غرفة أختك. وعندما تسمعين الليلة ما يدل على وجود زوج والدتك في غرفة نومه، عليكِ أن تفتحي نافذتك، وضعي مصباحًا في مكان يمكن رؤيته من الخارج، ثم غادري الغرفة بهدوء، وعودي إلى غرفتك. وتأكدي من إغلاق الباب بالقفل.

سنراقبك أنا وواطسون، وعندما نرى المصباح، سندخل غرفة نوم أختك من النافذة، ونقضي الليلة هناك.»

قالت آنسة ستونر: «أعتقد يا سيد هولمز أنك تعلم من قتل أختي. عليك أن تخبرني! هل ماتت من الخوف؟»

أجاب هولمز: «لا، لا أعتقد ذلك. لكن حتى أتأكد من الأمر، هذا كل ما يمكنني إخبارك به. أنا آسف. والآن يجب أن نرحل أنا وواطسون قبل أن يعود زوج والدتك. لتفعلي ما أخبرتك به، وسيكون كل شيء على ما يرام.»

رحلت أنا ورفيقي تاركين الآنسة ستونر في قصر ستوك موران. كان هناك نُزل قريب من المنزل تمكننا من حجز غرفة فيه. وكان بإمكاننا مد نظرنا من هناك عبر أحد الحقول لنرى نوافذ غرف النوم. انتظرنا أن يخيم الظلام.

قال هولمز، ونحن جالسان نراقب المنزل: «يجب أن أحذرك يا واطسون، من أننا قد نتعرض للخطر الليلة.»

سألته: «خطر؟ لكن كيف؟ لم أر أي شيء ظهر اليوم ينذر بأي خطر. لقد لاحظتَ بالتأكيد ما لم ألاحظه في هذه الغرف.»

رد هولمز: «كلا، لقد رأينا الأشياء نفسها، لكنني توصلت إلى ما تعنيه هذه الأشياء. أولًا، توجد فتحة تهوية، وهو ما توقعت وجوده. فقد قالت الآنسة ستونر إن أختها كانت تشم دخان سجائر زوج والدتها ليلة وفاتها. ومن هنا توصلت إلى وجود فتحة تصل بين الغرفتين. وهناك أيضًا حبل الجرس الذي لا يرن أي جرس، بالإضافة إلى الحقيقة المثيرة للانتباه، وهي أن فتحة التهوية وحبل الجرس قد وُضعا في الغرفة في الوقت نفسه.

الأمر الذي ربما لم تلاحظه هو سمة غريبة للسرير؛ فهو مثبت بالأرضية، مما يعني أنه لا يمكن تحريك السرير بعيدًا عن حبل الجرس وفتحة التهوية. نعم يا واطسون، نحن نتعامل مع مجرم مخيف. وقد نقضي ليلة مرعبة.»

أخذنا نراقب المنزل المظلم البعيد ساعات. وأخيرًا ظهر ضوء في إحدى النوافذ، وكان إشارتنا. تركنا النُزل وسرنا عبر الحقول. وفجأة، بينما كنا نعبر المرج، اندفع جسم داكن من بين الشجيرات، وطارت قدما هذا الكائن وذراعاه بعنف وهو يهرب في الظلام.

قلت مرتاعًا: «يا إلهي! ما هذا؟»

ضحك هولمز بهدوء، وقال: «هذه قضية غريبة بلا شك يا واطسون. كان ذلك قرد البابون الخاص بالدكتور. والآن لنتسلل سريعًا من نافذة غرفة النوم قبل أن نرى الفهد أيضًا.»

زحفنا إلى الداخل عبر النافذة المفتوحة، وأغلقناها بعد ذلك. وما إن دخلنا حتى همس إلي هولمز: «لا تصدر أي صوت يا واطسون. سأجلس على السرير، ولتجلس أنت على هذا

الكرسي. وليكن السلاح في متناول يدك.» كان هولمز قد أحضر عصا معه، فوضعها على السرير. قال هولمز: «يجب أن نجلس في الظلام، فنحن لا نرغب في أن يرى دكتور رويلوت أي شيء.» وأطفأ المصباح ليسود الظلام المكان تمامًا.

مرت الساعات ونحن ننتظر في صمت. دوَّى صوت جرس كنيسة من بعيد، وسمعنا كذلك صوت طائر، ثم صوتًا ما كان ليصدر إلا من قط بري كبير. لقد كان الفهد يسير بجوار نافذة غرفة النوم.

بعد فترة انتظار طويلة، لمحت بصيص ضوء ضعيف من فتحة التهوية الموجودة فوق السرير. اختفى الضوء سريعًا، وتبعته رائحة زيت محترق. أضاء شخص ما مصباحًا في الغرفة المجاورة، ثم صدر صوت حركة تبعه صمت.

مرت نصف ساعة قبل أن أسمع أي شيء آخر. كان الصوت هذه المرة صوت فحيح منخفضًا، مثل البخار الصادر عن قدر به سائل يغلي. هب هولمز فجأة من السرير، وأشعل عود ثقاب، وأمسك بعصاه، ولوح بها تجاه حبل الجرس. في الوقت نفسه سمعت صوت صفير منخفضًا.

صاح هولمز: «هل رأيته يا واطسون؟ هل رأيته؟»

كان رفيقي ينظر إلى أعلى تجاه فتحة التهوية. في تلك اللحظة هزت صرخة مدوية أرجاء ستوك موران. كانت صرخة ألم وخوف تحولت بعد ذلك إلى صيحة غضب. وبينما كنا نحدق أنا وهولمز أحدنا في الآخر، أخذت الصيحة تتلاشى حتى ساد الهدوء.

ركضنا في الرواق وصولًا إلى غرفة نوم دكتور رويلوت. طرق هولمز الباب بشدة، لكن لم يُجب أحد، ففتحنا الباب ودخلنا. كانت الغرفة مضاءة بمصباح، ولاحظنا أن الخزانة مفتوحة. كان دكتور جريمسبي جالسًا على الكرسي الخشبي الذي سبق أن فحصه هولمز ذلك اليوم، وكان يرتدي رداء النوم وخُفين، ويوجد حبل ملفوف فوق حِجره.

لم يحرك الدكتور ساكنًا، وكان رأسه متجهًا ناحية السقف، وعيناه محدقتان بأعلى. وكانت هناك عِصابة صفراء غريبة ملفوفة حول رأسه بإحكام. وكانت تغطيها نقط بنية اللون.

همس هولمز قائلًا: «العِصابة! عِصابة العين المنقطة!»

عندما تقدمت خطوة للأمام، بدأت العِصابة في التحرك، ثم خرج رأس ثعبان وعنقه المنتفخ من بين شعر الدكتور.

صاح هولمز: «إنها أفعى المستنقعات! أكثر الأفاعي فتكًا في الهند. لقد نال الدكتور جزاءه بالسلاح نفسه الذي كان يرتكب به جرائمه؛ فمات ملدوغًا.» أخذ هولمز الحبل ولفه

حول عنق الأفعى، فأخافها ونقلها بحرص إلى داخل الخزانة. «ليس هناك ما يمكننا فعله له، لكننا يجب أن نُبعد الآنسة ستونر عن هذا المكان، ونتصل بالشرطة.»

في اليوم التالي، وأثناء عودتنا إلى لندن بالقطار، أوضح لي هولمز حقائق القضية، فقال: «في البداية يا واطسون، لم أكن أسير في الطريق الصحيح. كنت أعلم أن أخت الآنسة ستونر قد استخدمت كلمة: «عِصابة»، وعلمت كذلك بأمر المسافرين الذين يخيمون بالجوار، فظننت أن حل اللغز يكمن في عِصابة المسافرين.

لكن عندما فتشنا الغرف، أدركت أنه لم يدخل أحد إلى الغرفة المغلقة. كما لاحظت أيضًا حبل الجرس، وفتحة التهوية، والسرير الذي لا يمكن تحريكه. وأصبح من الواضح أن الحبل كان وسيلة لإيصال السرير بفتحة التهوية. وعلى الفور، فكرت في وجود أفعى في الأمر. فإذا كان دكتور رويلوت لديه فهد وقرد بابون، فيسهل عليه اقتناء أفعى. ونظرًا لممارسته الطب في الهند، فهو يعلم أيضًا أن سم هذه الأفعى لا يمكن اكتشافه، وأن لدغتها ليس لها أثر مرئي.»

تابع هولمز موضحًا: «عندما عُقدت خطبة ابنة زوجته جوليا، لم يرغب في أن تحصل على المال. لذلك وضع حبل الجرس في غرفتها، وزودها بفتحة التهوية. وبعدما وضع الاثنين في الغرفة، انتظر حتى نامت ابنة زوجته. ومن خلال النظر إلى الكرسي الموجود في غرفته، توصلت إلى أنه قد وقف عليه للوصول إلى فتحة التهوية. وتمثلت خطته في أن يضع الأفعى في فتحة التهوية بحيث يزحف هذا المخلوق الفتاك عبر الفتحة، وينزل على الحبل ليصل إلى سرير الضحية.

في بادئ الأمر لم تهاجم الأفعى جوليا ستونر، لكن الدكتور دربها على العودة عند سماع صوت صفير. وهذا هو الصوت الذي سمعته جوليا. كما أن اللبن ساعد في إغراء الأفعى بالعودة إلى غرفة رويلوت، فكان يمسك بها باستخدام الحبل ويضعها في الخزانة. أما صوت الرنين الذي سمعته الأختان، فكان صوت غلق الخزانة.

ولذلك أنصت في الليلة الماضية إلى أضعف صوت يمكن أن يصدر عن أفعى. وعندما سمعت الحفيف، أشعلت عود ثقاب، وهاجمت هذا الكائن، فانزلق عائدًا إلى غرفة دكتور رويلوت. لكنني ضربته بالعصا، الأمر الذي أغضبه، وعندما عاد إلى غرفة نوم الدكتور هاجمه.»

تطلع شيرلوك هولمز خارج النافذة إلى منظر الريف الإنجليزي. كان من الصعب عليه تصور وقوع أحداث الليلة الماضية في مثل هذا المكان الهادئ. قال هولمز: «لقد قُتل القاتل ... قُتل بسلاح الجريمة الغريب ذاته الذي ارتكب به جرائمه.»

المترجم اليوناني

طوال سنوات معرفتي بشيرلوك هولمز، لم يتحدث مطلقًا عن أسرته. ربما لهذا السبب كنت أراه أحيانًا رجلًا بلا مشاعر. كان الذكاء عنده أهم من مشاعر الصداقة والحب. ومع عدم وجود أصدقاء أو أقرباء له، كان أشبه بعقل دون قلب. لذلك اندهشت عندما بدأ يتحدث في أحد الأيام عن أخيه.

كان ذلك مساء أحد أيام فصل الصيف، وأنا وهولمز ننال قسطًا من الراحة بعد العشاء. انتقلنا في حديثنا من موضوع لآخر. وبصورة ما، بدأنا التحدث عن العوامل التي تشكل شخصية المرء. وتساءلنا هل نرث الشخصية التي نصير عليها من والدينا، كما يرث الابن مثلًا عيني والده، أو الابنة شعر والدتها؛ أم أن كل شيء يعتمد على كيفية تنشئتنا.

قلت له: «حسنًا يا هولمز، يبدو لي أن والديك قد ربياك بأسلوب يصعب أن تكون معه أي شيء آخر غير المحقق العظيم الذي أصبحت عليه.»

رد هولمز: «يحمل كلامك بعض الحقيقة يا واطسون، لكنني أعتقد أنه من هذا المنطلق لا بد أن ينتشر الأمر بين أفراد العائلة. لتأخذ مثالًا على ذلك أخي مايكروفت. بالرغم من أننا تربينا بالأسلوب ذاته، فإنه يتمتع بمهارات تفوق مهاراتي بكثير، أؤكد لك ذلك.»

سألته: «إذن، لماذا لم يشتهر مثلك؟»

– «يتمتع مايكروفت بلا شك بقدرة أكبر على الملاحظة والاستدلال، لكنه لا يهتم بالأمور الأخرى التي يستلزمها عملي. فهو لا يتمتع بالنشاط اللازم لجمع الأدلة أو ملاحقة المشتبه بهم. ولا يمكن أن يزعج نفسه بالتجول في الريف للتحقق من صحة أفكاره. لذلك، يستخدم مايكروفت مهارته في التعامل مع الأرقام في تولي بعض المهام لحساب الحكومة.

إنه شخص روتيني يا واطسون، ويفعل الأمور ذاتها كل يوم. في الواقع إذا كنت ترغب في لقائه، فسيسعدني أن أعرّفك به. فهو يكون كل يوم في الوقت نفسه في نادي ديوجينيز كلوب. يمكننا الذهاب إلى هناك الآن.»

قلت له بعد أن تركنا شارع بيكر: «لم أسمع مطلقًا عن نادي ديوجينيز كلوب.»

رد هولمز: «لم يسمع به كثيرون. أعضاؤه مجموعة غريبة من الناس؛ فهم لا يذهبون إلى النادي للالتقاء بالأعضاء الآخرين. في الحقيقة هناك قاعدة تمنعهم من التحدث فيما بينهم. فيرتادون النادي للتمتع بالكراسي المريحة والصحف، ولأنه أيضًا أحد الأماكن القليلة التي يمكن أن ينفردوا فيها بأنفسهم.»

وصلنا سريعًا إلى نادي ديوجينيز كلوب. وفي الداخل ألقيت نظرة على غرفة كبيرة، ورأيت مجموعة من الرجال يجلسون على كراسٍ بمساند، ويقرءون الصحف. لم يكونوا يتحدثون فيما بينهم. وقد أوضح هولمز أن هناك غرفة واحدة مسموح فيها بالتحدث. تركني في هذا المكان، وانتظرت في هدوء. عاد صديقي سريعًا ومعه رجل ضخم ممتلئ الجسم. كان ذلك أخاه الأكبر، مايكروفت هولمز. وقد عكس تعبير وجهه حضور الذهن ذاته الذي يظهر على هولمز.

قال مايكروفت: «تسعدني مقابلتك يا دكتور واطسون. لقد اشتهر أخي بفضل ما تكتبه من قصص عما يخوضه من مغامرات. بالمناسبة يا شيرلوك، لقد توقعت أن تتصل بي الأسبوع الماضي. ظننت أنك قد ترغب في معرفة أفكاري بشأن قضية مانور هاوس. لقد كان آدامز، أليس كذلك؟»

قال هولمز، ونحن نهم بالجلوس: «نعم، كان آدامز.»

قال مايكروفت، وهو يلقي نظرة من النافذة على حركة المرور في الشارع: «أتمنى أن يكون نادينا قد أعجبك يا دكتور واطسون، إنه مكان رائع لملاحظة الناس. على سبيل المثال: الرجلان اللذان يسيران باتجاهنا ...»

ألقى هولمز نظرة خاطفة من النافذة، وقال: «لاعب البلياردو والرجل الآخر؟»

أجاب مايكروفت: «نعم، ما الذي تستنتجه عن الرجل الآخر؟»

وقف الرجلان خارج النافذة ليتحدثا. كان بإمكاني رؤية علامات طباشير على سترة الرجل الأول. وكان من الواضح أن مصدر هذا الطباشير هو لعب البلياردو. أما الرجل الثاني، فكان قصيرًا، ولون بشرته أسمر داكن نتيجة للتعرض للشمس. كان يرتدي قبعة ويحمل عددًا من الرُزم تحت ذراعه.

أبدى هولمز ملاحظة قائلًا: «أعتقد أنه جندي.»

قال مايكروفت: «لقد ترك الجيش مؤخرًا.»

– «خدم في الهند ...»

– «ضابط ...»

أضاف هولمز: «أظن بسلاح المدفعية الملكي.»

قال مايكروفت: «أرمل.»

– «لكن لديه طفل يا عزيزي مايكروفت.»

– «طفلين يا عزيزي شيرلوك، طفلين.»

قلت ضاحكًا: «هذا كثير حقًّا.»

رد هولمز: «على الإطلاق يا واطسون. لتنظر فقط إلى كيف يقف، وإلى ملابسه، وكيف يسير. من السهل ملاحظة أن هذا الرجل كان عسكريًّا وأنه ضابط. وكما تعلم، يخدم الكثير من جنودنا في الهند. وتشير سُمرة بشرته إلى أنه عاد مؤخرًا من هذا البلد.»

استكمل مايكروفت حديثه: «لا يزال يرتدي حذاءه العسكري طويل الرقبة، مما يشير إلى أنه لم يترك الجيش منذ فترة طويلة.»

أضاف هولمز: «وهو لا يسير مثل الجنود الذين سبق لي رؤيتهم في سلاح الفرسان ويمتطون الخيول. وهو أيضًا ليس في سلاح المهندسين الملكي، فوزنه الثقيل لا يتناسب مع العمل الذي يؤدونه. لكنه يُميل قبعته على أحد جانبي رأسه. يمكنك ملاحظة أن أحد جانبي جبينه أقل سُمرة من الآخر. الأمر الذي لا يعني سوى أنه في سلاح المدفعية.»

قال مايكروفت: «توضح ملابسه كذلك أنه في حالة حداد، وفقد شخصًا عزيزًا عليه. وبما أنه يشتري هدايا أطفال، فأعتقد أنه قد فقد زوجته. يحمل خشخيشة لطفل صغير، وكتابًا مصورًا لطفل أكبر سنًّا.»

أدركت حينها أن هولمز كان صادقًا تمامًا عندما وصف لي أخاه في وقت مبكر من ذلك اليوم.

قال مايكروفت: «بالمناسبة يا شيرلوك، هل تهتم بمعرفة تفاصيل قضية طُلب مني التحقيق فيها؟»

أجاب هولمز: «يسعدني ذلك يا أخي العزيز.»

رن مايكروفت الجرس، وكتب سريعًا رسالة على ورقة، ثم أعطاها للنادل.

أوضح مايكروفت الأمر قائلًا: «لقد طلبت من جاري الانضمام إلينا، اسمه ميلاس، وهو يوناني. لقد طلب مني التحقيق في أمر سأدعه يشرحه لكما.»

بعد بضع دقائق، انضم السيد ميلاس إلينا، وأخبرنا بقصته: «أعتقد أنكما قد عرفتما بالفعل أنني أكسب قوت يومي بالعمل مترجمًا يونانيًّا. على سبيل المثال: عندما يكون هناك نزلاء يونانيون لا يتحدثون الإنجليزية بالفنادق، فإنهم يتصلون بي. وفي بعض الأحيان يكون الاتصال في أوقات غريبة لأساعد مسافرين وصلوا لتوهم إلى لندن. لذلك فإنني لم أندهش عندما اتصل بي السيد لاتيمر منذ ليلتين. قال إن صديقًا يونانيًّا له كان يزوره، وإنه بحاجة لخدماتي. بدا في عجلة من أمره، ودفعني إلى الركوب سريعًا في عربة تجرها الخيول.

لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا عندما فعل السيد لاتيمر أمرًا شديد الغرابة؛ لقد أخرج عصا صغيرة من جيبه، ووضعها على المقعد الموجود بجانبه، ثم أغلق نوافذ العربة. واندهشت عندما رأيت النوافذ مغطاة بالورق؛ فحجبت عني رؤية ما بخارج العربة.

أوضح لي بعد ذلك أنه لا يريدني أن أعلم إلى أين نحن ذاهبان. كما أخبرني أنه يجب علي عدم اللجوء إلى الشرطة، وسأحصل على مكافأة مقابل ما تكبدته من عناء. كان رجلًا ضخمًا، ولم يكن هناك ما يمكنني فعله.»

تابع ميلاس قائلًا: «سرنا مدة ساعتين تقريبًا حتى توقفت العربة. فتح السيد لاتيمر الباب وخرجت. كنا عند منزل ذي بوابة مقوسة الشكل، وعلى الجانبين يمتد فناء مليء بالحشائش والأشجار. فيما عدا ذلك، لم يكن لدي أية فكرة عن المكان الذي أنا فيه.

وبالداخل تركني السيد لاتيمر مع رجل أكبر سنًّا، قاسي الملامح، ويرتدي نظارات. حذرني هذا الرجل أيضًا من مخالفة ما قيل لي، وإن فعلت، فسأتعرض للمشكلات. وأوضح أن هناك رجلًا يونانيًّا في المنزل، وأنه يريدني أن أطرح أسئلة على هذا الرجل، وأترجم إجاباته إلى اللغة الإنجليزية. وأكد الرجل ذو النظارات على ضرورة عدم قول أي شيء آخر لذلك اليوناني.

اصطحبني إلى غرفة أخرى، كانت كبيرة وضعيفة الإضاءة. وكان بإمكاني رؤية أثاث باهظ الثمن، وشعرت بسجادة سميكة وفخمة تحت قدمي. كانت هناك مجموعة من الدروع اليابانية بجوار المدفأة. في تلك اللحظة، ظهر السيد لاتيمر ومعه اليوناني. وفزعت عندما رأيت وجهه الشاحب شحوب الموت. بدا ضعيفًا للغاية. وإلى جانب هذا المظهر السيئ الذي كان عليه، صدمتني أكثر رؤية الضمادات التي تغطي وجهه. كما اختفى فمه خلف قطعة شريط كبيرة. دفع السيد لاتيمر الرجل ليجلسه على كرسي آخر.

طلب مني الرجل ذو النظارات بعد ذلك أن أطرح مجموعة من الأسئلة، وأجاب الرجل المُضمَّد على كل منها بالكتابة على ورقة.»

تابع السيد ميلاس روايته الغريبة، بينما كنت أنا وهولمز ومايكروفت نستمع إليه: «كان السؤال الأول: هل ستوقع على الأوراق؟ وكانت إجابته: أبدًا! ثم أضاف: إلا إذا شهدتُ زواجها على يد قسيس يوناني أعرفه.

استمر ذلك فترة من الوقت، ثم طرأت على ذهني فكرة. ما إن تأكدت من أن السيد لاتيمر والرجل الآخر لا يمكنهما التحدث باليونانية على الإطلاق، حتى بدأت أضيف أسئلتي إلى أسئلتهما. وبهذه الطريقة تمكنت أنا والرجل اليوناني من التواصل معًا دون أن يعلم الآخرون. وصارت المحادثة على نحو شبيه بذلك:

– «لا فائدة من المقاومة. **من أنت؟**»

– «لا يهمني. **أنا غريب في لندن.**»

– «إذن، فأنت تعلم ما سيحدث لك؟ **كم مضى على وجودك هنا؟**»

– «افعل ما بدا لك. **ثلاثة أسابيع.**»

– «لن تكون أملاكها ملكًا لك أبدًا. **ماذا بك؟**»

– «ولن تكون لك أيضًا. **لم آكل منذ أيام.**»

– «سوف نطلق سراحك إذا وقعت. **أين نحن؟**»

– «لن أفعل أبدًا. **لا أدري.**»

– «لا تجني مما تفعله سوى إيذائها. **ما اسمك؟**»

– «دعني أتحدث إليها. **كراتيدس.**»

– «وقع، ثم يمكنك رؤيتها. **من أين أتيت؟**»

– «إذن، فلن أراها ثانيةً أبدًا. **أثينا.**»

في تلك اللحظة، فُتح الباب، ودخلت امرأة إلى الغرفة. كانت طويلة القامة، وشعرها أسود، وترتدي رداءً أبيض فضفاضًا. دخلت لتسأل عن السيد لاتيمر، لكنها عندما رأت الرجل المضمَّد على الكرسي، هتفت باسمه قائلةً: «بول!»

مزق كراتيدس الشريط الموجود على فمه، ونادى عليها. كانت تُدعى صوفي. اندفع ليعانقها، لكن لاتيمر أمسك بالمرأة وجذبها بعيدًا. وفعل الرجل الآخر الأمر نفسه مع كراتيدس. وعندما عاد الرجل ذو النظارات، أعطاني بعض المال، ثم حذرني، وهو يضحك ضحكة مخيفة، من التحدث مع أي أحد عن تلك الليلة.

عاد السيد لاتيمر، واصطحبني إلى العربة. وسرنا مرة أخرى مدة ساعات، والنوافذ مغلقة. وعندما توقفت العربة أخيرًا، خرجت منها، ووجدتني في الريف. وانطلقت العربة

مسرعة، تاركةً إياي بمفردي. ومن هناك توجهت إلى أقرب بلدة، وركبت أول قطار متجه إلى المدينة.

لا أدري أين كنت، أو مع من كنت أتعامل. كل ما أعرفه هو أنني أريد مساعدة ذلك الرجل المسكين. لقد أخبرت أخاك والشرطة بالأمر، وأخبرك به الآن يا سيد شيرلوك هولمز.»

سأل هولمز: «وما الذي فعلته يا مايكروفت؟»

أعطانا الأخ الأكبر إحدى الصحف، وأشار إلى إعلان نصه:

جائزة لأي شخص يدلي بمعلومات عن رجل يوناني يُدعى بول كراتيدس من أثينا، أو امرأة يونانية اسمها صوفي.

قال مايكروفت: «نُشر هذا الإعلان في جميع الصحف اليومية، لكن لم يتقدم أحد.»

سأل صديقي: «ماذا عن السفارة اليونانية؟»

وكانت الإجابة: «لا شيء.»

سأل هولمز: «هل اتصلت بالشرطة في أثينا؟»

وجَّه مايكروفت حديثه إلي قائلًا: «لهذا السبب يتمتع شيرلوك بالشهرة، أما أنا فلا. فهو يتسم بالنشاط في تقفي الآثار، أما أنا فلا. إذا كنت تود التحقيق في الأمر يا شيرلوك، فبالتأكيد …»

رد هولمز: «شكرًا يا مايكروفت. سأحقق في هذه القضية، وسأبقيك أنت والسيد ميلاس على اطلاع بكل ما هو جديد. وفي هذه الأثناء، لو كنت مكانك يا سيد ميلاس، لتوخيت الحذر. فالسيد لاتيمر وصديقه يعلمان الآن أنك لم تبال بتحذيراتهما، وربما تكون في خطر.»

غادرت أنا وصديقي نادي ديوجينيز كلوب، وتوجهنا إلى شارع بيكر. توقفنا عند مكتب التلغراف حتى يبعث هولمز بعدد من الرسائل. بعد ذلك، وأثناء المضي في طريقنا، سألني هولمز عن رأيي في القضية.

قلت له: «يبدو لي أن لاتيمر قد خطف المرأة اليونانية، ربما من أثينا.»

قال هولمز: «أختلف معك يا واطسون. فلاتيمر لا يتحدث اليونانية على الإطلاق، لذلك لا أظن أنه قد ذهب إلى هناك قط. من ناحية أخرى، فإن السيدة تتحدث الإنجليزية. لذلك أعتقد أنها قد أتت إلى إنجلترا من قبل، والتقت بلاتيمر في إحدى مرات زيارتها. وربما تكون قد نشأت بينهما علاقة عاطفية. فهي لم تعط لميلاس انطباعًا بأنها كانت أسيرة.»

أكملت قائلًا: «أعتقد أنها شقيقة السيد كراتيدس. وأظن أنها تملك ثروة ما، وجاء أخوها إلى إنجلترا لإنهاء علاقتها بلاتيمر. لكن لاتيمر والرجل الآخر ما كان ليردعهما أي شيء، فأبقيا على كراتيدس سجينًا لديهما. ولم تكتشف هي الأمر سوى عندما دخلت عليهم صدفة. وبذلك فهي الآن سجينة لديهما أيضًا.»

صاح هولمز: «رائع يا واطسون! ويعتمد الأمر علينا في إنهاء هذه اللعبة. إن حالفنا الحظ، فسنتلقى ردًّا على الإعلان المنشور في الصحيفة. ففي النهاية لم تكن صوفي مختبئة من قبل، وربما تعرف أناسًا هنا، ومن ثم فقد نتمكن من إيجادهم جميعًا.»

وصلنا إلى شارع بيكر، وصعدنا السلم، وفتحنا باب الشقة. واندهشنا لرؤية مايكروفت هولمز في انتظارنا. قال لنا: «أدخلا، أدخلا.»

سأل هولمز أخاه: «كيف وصلت إلى هنا؟»

أجاب مايكروفت: «لقد سبقتكما باستقلال عربة. لقد تلقينا ردًّا على الإعلان، وكان من السيد جيه دافينبورت. وهو يقول إنه يعرف الآنسة كراتيدس، وإنها كانت تقيم في مارتليز، بباكنجهام.»

قال هولمز: «إذن، هذا هو مكانهم جميعًا. سنتصل بشرطة سكوتلاند يارد في الحال، ونصطحب المفتش جريجسون معنا.»

أضفت قائلًا: «من الحكمة إحضار السيد ميلاس أيضًا، فقد نحتاج إلى مترجم.»

قال هولمز: «نعم، رائع يا واطسون. والآن، لنبحث سريعًا عن عربة!»

بينما كنت أنا ومايكروفت ننزل السلم، استدرت ورأيت هولمز يمد يده في أحد الأدراج، ويسحب مسدسًا، ويضعه في جيبه ليلحق بنا بعد ذلك في الشارع.

كان الظلام قد بدأ يخيم على الأرجاء عند وصولنا إلى منزل المترجم اليوناني. لكننا اكتشفنا أن السيد ميلاس غير موجود. أوضحت صاحبة العقار الذي يقطنه أن رجلًا قد حضر للقائه، وغادرا معًا في عربة. وقالت إن الزائر كان رجلًا قصير القامة، يلبس نظارات، وضحكته غريبة.

أسرعنا من هناك متجهين إلى شرطة سكوتلاند يارد، وانضم إلينا المفتش جريجسون، وتوجهنا جميعًا إلى محطة القطار. وصلنا إلى باكنجهام في العاشرة والنصف، واستقللنا عربة بقية الطريق.

كان مارتليز منزلًا كبيرًا وكئيبًا يحيط به فناء كبير. كانت النوافذ مظلمة، وبدا المكان فارغًا.

أبدى هولمز ملاحظة، وهو يتحقق من الطريق المؤدي إلى المنزل: «لقد غادروا. هذه الآثار حديثة للغاية، وقد خلفتها عربة مليئة بالمتاع والراكبين.»

لم يفتح أحد الباب عند طرقه، ففتح هولمز إحدى النوافذ عنوة. وعندما دخلنا، وجدنا أنفسنا في الغرفة الكبيرة التي وصفها ميلاس. وكانت مجموعة الدروع اليابانية بجانب المدفأة. وبينما كنا ننظر حولنا، سمعنا صوت تأوه منخفضًا. كان يأتي من أعلى.

اندفعنا إلى الدور الثاني، واتبعنا الصوت حتى وصلنا إلى الغرفة. كان الباب مغلقًا من الخارج، لكن المفتاح كان لا يزال في الباب. فتح هولمز الباب، ودخل الغرفة. وفي لمح البصر، عاد إلى الرواق مرة أخرى، وهو يسعل ويحكم قبضته على صدره.

قال لاهثًا: «إنه غاز.» نظرنا داخل الغرفة، ورأينا مصباحًا تضيئه شعلة زرقاء صغيرة. كان هذا المصباح مصدر انبعاث غاز سام. وفي ضوئه الضعيف، رأينا شخصين منهارين في أحد الأركان. أخذ هولمز نفسًا عميقًا وعاد إلى داخل الغرفة. فتح إحدى النوافذ، وأمسك بالمصباح، وألقاه بالخارج. ورفعنا بعد ذلك الرجلين، وسحبناهما إلى الرواق.

بدا الإرهاق على وجهيهما، والجفاف على شفاههما من العطش. كانت أيديهما وأقدامهما مكبلة. كان أحدهما المترجم اليوناني، ميلاس. أما الآخر فكان وجهه شاحبًا ومغطى بالضمادات. كان بالتأكيد بول كراتيدس.

لم نتمكن من إنقاذ السيد كراتيدس المسكين، لكن ميلاس استرد عافيته خلال ساعة، وشرح ما حدث. كما توقعنا، زار الرجل ذو النظارات المترجم اليوناني. وما كان أمام ميلاس سوى العودة إلى باكنجهام، حيث أُجبر على استجواب كراتيدس ثانية. وما من شيء أقنع الأخ بالتنازل عن ثروة أخته. فُحبس الرجلان معًا في الغرفة المهلكة، بينما هرب لاتيمر وشريكه مصطحبين صوفي كراتيدس معهما.

لم نكشف أنا وهولمز الستار عن جميع تفاصيل القضية إلا لاحقًا. فتلقينا ردًّا على إعلان مايكروفت في الصحيفة من رجل كان يعرف الآنسة كراتيدس. أخبرنا أنها تنحدر من أسرة يونانية ثرية، وكانت في زيارة لإنجلترا عندما التقت بلاتيمر. علم أصدقاء الآنسة كراتيدس أن نوايا ذلك الإنجليزي كانت سيئة، وأرسلا إلى أخيها يخبرونه بالأمر. لكن عندما وصل أخوها إلى إنجلترا، اختطفه لاتيمر وشريكه. لم تعلم الآنسة كراتيدس حتى أن أخاها كان موجودًا في المنزل ذاته. لذا رجحنا أن الغرض من الضمادات كان إخفاء أخيها خوفًا من أن تلمحه مصادفة. وكما علمنا، لم ينجح الأمر.

بعد ذلك بشهور، لاحظت أنا وهولمز قصة غريبة في الصحيفة. كانت تشير تلك القصة إلى نهاية مأساوية لقيها الرجلان الإنجليزيان أثناء سفرهما إلى المجر بصحبة امرأة. وتوصلت الشرطة إلى أن الرجلين قد تشاجرا، وأثناء الشجار أصيب كلاهما بإصابات مميتة. وكان تعليق هولمز الوحيد هو أن الشرطة تكون مخطئة في بعض الأحيان، وأنه موقن أن لدى الأخت قصة مختلفة، قصة رأت فيها العدالة تتحقق أمام عينيها.

مغامرة تماثيل نابليون الستة

جلس المفتش لستراد من شرطة سكوتلاند يارد هادئًا. كان كثيرًا ما يزورنا أنا وشيرلوك هولمز عندما كنا نتشارك الغرف في شارع بيكر. وكان هولمز تواقًا دائمًا إلى معرفة ما كان يحدث في مقر قيادة الشرطة، كما كان المفتش يرحب بأية مساعدة يمكن لهولمز تقديمها.

سأل هولمز: «هل تعمل على أي شيء مثير للاهتمام، أيها المفتش؟»

أجاب لستراد: «لا، لا شيء يُذكر. حسنًا، ربما هناك شيء ما، لكنه قد يثير اهتمام دكتور واطسون أكثر منك. أقول ذلك لأنه يبدو أنني أتعامل مع إحدى صور الجنون. فهل من سبب آخر قد يدفع أحدًا لتكبد عناء تدمير تماثيل الإمبراطور الفرنسي نابليون؟»

قال هولمز، محبطًا: «آه، حقًّا.» واسترخى في جلسته على الكرسي.

سأل لستراد: «هل من تفسير آخر لذلك؟»

– «هذا الرجل يقتحم المنازل، ولا يسرق أي شيء، ثم يحطم تماثيل نابليون التي يجدها هناك.»

قال هولمز، وقد اعتدل ثانيةً في جلسته: «أكمل، رجاءً.»

أكمل لستراد حديثه قائلًا: «بدأ كل شيء منذ أربعة أيام. كان أول بلاغ من رجل يُدعى مورس هدسون. يمتلك السيد هدسون متجرًا صغيرًا في طريق كينينجتون حيث يبيع اللوحات والتماثيل الصغيرة. يبدو أنه ومساعده كانا في الجزء الخلفي من المتجر عندما سمعا صوتًا عاليًا لتحطم شيء ما. اندفعا إلى الجزء الأمامي من المتجر لمعرفة ما حدث، وعثرا على تمثال صغير من الجبس لنابليون على الأرض، وقد تهشم. لكن لم يكن هناك أحد في المتجر.»

سأل هولمز: «هل كان تمثالًا كاملًا أم تمثالًا نصفيًّا مكونًا من رأس وكتفين؟»

أجاب المفتش: «كان تمثالًا نصفيًّا. خرج السيد هدسون بعد ذلك، ورأى شهود العيان شخصًا يجري من المحل، لكنه كان قد ابتعد. لا تقدر القطعة بالكثير على الإطلاق، لذلك لم يلحق أي ضرر حقيقي بأحد.»

تابع لستراد قائلًا: «لكن الليلة الماضية، كان هناك بلاغ آخر. يعيش دكتور بارنيكوت بالقرب من متجر السيد هدسون، ويمتلك مجموعة كبيرة من الكتب واللوحات وقطع أخرى متعلقة بالإمبراطور الفرنسي. لقد اشترى — في الواقع — تمثالين نصفيين لنابليون من متجر السيد هدسون، ووضع واحدًا في منزله، والآخر في مكتبه في لوير بريكستون.

وقد اقتحم أحدهم هذا الصباح منزل دكتور بارنيكوت. الغريب في الأمر أنه لم يسرق شيئًا فيما عدا تمثال نابليون النصفي. لقد أخذه إلى الفناء وحطمه.»

ازداد اهتمام هولمز، وقال: «تابع حديثك، أيها المفتش.»

قال لستراد: «يزداد الأمر غرابة يا سادة. فبعد ظهر هذا اليوم، اكتشف دكتور بارنيكوت أن شخصًا اقتحم مكتبه، وحطم تمثال نابليون الآخر.»

قال هولمز: «أخبرني أيها المفتش، هل كان تمثالا نابليون، اللذان يمتلكهما دكتور بارنيكوت، مماثلين لتمثال السيد هدسون؟»

أجاب هدسون: «نعم يا سيد هولمز.»

قال هولمز: «إذن، فالرجل الذي تبحث عنه ليس مدفوعًا بكرهه لنابليون. ففي النهاية، هناك الآلاف من تماثيل هذا الإمبراطور الفرنسي في لندن. يبدو أن هذا الرجل يسعى وراء تماثيل متطابقة لنابليون.»

قال لستراد مقترحًا: «أو ربما يعيش بالجوار، وانتابته نوبات الجنون التي يعاني منها، وتصادف عثوره على هذه التماثيل الثلاثة أولًا. ما رأيك يا دكتور واطسون؟»

أجبته: «من المحتمل. وربما يكون هو أو أحد أفراد عائلته قد أصيب أو لحقه أذى في الحرب الضارية. ويمكن أن يكون يلقي باللوم على نابليون على نحو غريب.»

قاطعني هولمز قائلًا: «لكن ما يثير اهتمامي هو أن الرجل أخذ تمثال نابليون الخاص بدكتور بارنيكوت إلى الخارج. من المجنون الذي قد يفكر في كسر تمثال نصفي في مكان لا يسبب فيه إزعاجًا للأسرة؟ ثم في مكتب الدكتور، كسره في الداخل لأنه كان يعلم أنه ما من أحد في الجوار يمكن إزعاجه. لا، نحن لا نتعامل مع حالة جنون يا سادة.»

قال هولمز مقطبًا جبينه: «وأنا أحذركما من أن هذه الأحداث قد تبدو غير مؤذية وتافهة، لكن لا يمكن القول إن توافه الأمور لا أهمية لها. أتذكر يا واطسون قضية عائلة

أبرينتي المثيرة؟ بدأ كل شيء عندما لاحظت العمق الذي غاص إليه البقدونس في الزبد في يوم حار. لا، ليس هناك شيء لا يحمل معنى. وسوف أقدر صنيعك أيها المفتش إذا أبقيتني على اطلاع بما يستجد من أمور.»

لم يمر وقت طويل حتى اتصل بنا لستراد ثانية، فقد وصلتنا رسالة منه في الصباح التالي مباشرة، يطلب منا الذهاب إلى منزل رقم ١٣١ شارع بيت. فهرعت أنا وهولمز إلى هناك بأقصى سرعة، ورأينا حشدًا متجمعًا أمام المنزل. وأثناء مرورنا بين المتفرجين، كان من الواضح أن اللغز بات أكثر خطورة.

كان لستراد بالداخل، وقال: «حسنًا يا سيد هولمز. لقد تحول الأمر إلى جريمة قتل. هذا السيد هوراس هاركر، مالك هذا المنزل، ويعمل كذلك مراسلًا صحفيًّا في إحدى الجرائد. سيوضح لكما ما يعرفه.»

كان هاركر يجلس مرتديًا ملابس المنزل، وتبدو على وجهه علامات الانزعاج الشديد. قال هاركر: «اعتدت طوال حياتي نقل أخبار أشخاص آخرين، أما الآن، فأغرب قصة شهدتها في حياتي تحدث في منزلي.

بحكم أنني صحفي، أقوم بكتاباتي ليلًا في أحيان كثيرة يا سيد هولمز. ولذا فإنني كنت أعمل الساعة الثالثة صباح اليوم في مكتبي بالطابق العلوي. وحينها سمعت صوت شخص ما بالدور السفلي. أنصت جيدًا، لكن ساد الصمت ثانية المنزل. بعد ذلك بخمس دقائق، سمعت صرخة مرعبة، فأسرعت إلى الدور السفلي، ووجدت النافذة مفتوحة. لاحظت اختفاء تمثال نابليون النصفي من على الرف الموجود فوق المدفأة. ليست لدي فكرة لماذا يمكن أن يأخذ لص هذه القطعة. لقد اشتريتها منذ أربعة أشهر من هاردينج برزرز بشارع هاي ستريت. إنه مصنوع من الجبس، ولا يساوى الكثير.»

أخذ هاركر نفسًا عميقًا وأكمل قائلًا: «ذهبت إلى الباب الأمامي، وفتحته. وهناك عثرت على الرجل المقتول ممدًا على درجات السلم الأمامية. اتصلت بالشرطة التي وصلت في الحال.»

سأل هولمز: «والرجل المقتول؟ من هو؟»

أجاب لستراد: «لا نعلم. لقد أُبعدت الجثة، لكن يمكنني أن أقول لك إنه طويل القامة، ذو بشرة سمراء، وقوي للغاية، سيئ الملبس، ويبلغ من العمر حوالي ثلاثين عامًا. وكان هناك سكين بالقرب من الجثة، وعثرنا على هذه الصورة الفوتوغرافية في جيبه.»

كانت الصورة لرجل يبدو صارمًا، وله حاجبان سميكان، وذقن كبير.

سأل هولمز: «وأين التمثال النصفي؟»

أجاب لستراد: «في الحديقة الأمامية لمنزل قريب. يمكننا الذهاب إلى هناك الآن إذا أردتما ذلك.»

تركنا السيد هاركر، الذي قال إنه لا يزال ينبغي له أداء مهام وظيفته، وتقديم تقرير عن حادث القتل إلى الجريدة التي يعمل بها. سرنا في الشارع، ووجدنا التمثال النصفي محطمًا على الحشائش. التقط هولمز عددًا من قطع الجبس، وفحصها بعناية.

قال هولمز: «حسنًا، نحن نعلم الآن أن الرجل الذي نبحث عنه قد أحضر التمثال النصفي إلى هذا الفناء لسبب ما. فهذا منزل خالٍ، ومن ثم فهو يعلم أنه لن يزعجه أحد فيه. لكن هناك مبنى آخر خالٍ أقرب إلى منزل السيد هاركر. لا بد أن الرجل المقصود قد حمل تمثال نابليون إلى هنا بسبب هذا المصباح الذي يضيء الشارع. كان يرغب في الخصوصية، لكنه أراد أيضًا أن يرى ما كان يفعله.»

قال لستراد: «عند التفكير في الأمر، نجد أن تمثالي السيد بارنيكوت قد حُطم كلاهما في مكان به إضاءة. لكن ما الذي يعنيه ذلك يا سيد هولمز؟»

أجاب صديقي: «لست متأكدًا أيها المفتش. هذا ما يجب علينا اكتشافه.»

قال لستراد: «يبدو ليّ أننا سنتوصل إلى إجابة عندما نعرف اسم الرجل المقتول.»

قال هولمز: «إذن، سأدعك تتبع هذا الخيط. وفي هذه الأثناء سأبحث عن أجوبة في مكان آخر. بالمناسبة أيها المفتش، عندما تتحدث مع السيد هاركر، رجاءً أخبره أنني أعتقد أننا نتعامل مع شخص مجنون مدفوع في جرائمه بغضبه من نابليون. سيساعده ذلك في كتابة مقاله.»

سأل لستراد: «لكنك في الحقيقة لست مقتنعًا بذلك يا سيد هولمز، أليس كذلك؟»

قال هولمز: «ربما، لكن قراء جريدة السيد هاركر سيجدون الأمر مثيرًا. والآن لدينا عمل يجب أن نؤديه. أود الاحتفاظ بالصورة الفوتوغرافية التي عُثر عليها في جيب القتيل أيها المفتش. وإذا تمكنت من مقابلتي أنا وواطسون في شارع بيكر الساعة السادسة الليلة، يمكننا استكمال التحقيقات معًا.»

تركت أنا وهولمز شارع بيت، وتوجهنا إلى متجر السيد هدسون في طريق كينينجتون حيث حُطم أول تمثال لنابليون.

قال صاحب المتجر ردًّا على أحد أسئلتنا: «نعم، لقد بعت لدكتور بارنيكوت تمثالين نصفيين لنابليون. وقد اشتريت التماثيل الثلاثة من مصنع جيلدر وشركائه الكائن بشارع تشرش حيث يصنعون التماثيل وغيرها من الأعمال الحجرية.»

قال هولمز: «إذن، فقد انتقلت تماثيل نابليون من مصنع جيلدر وشركائه إلى هذا المتجر، ثم إلى منزل دكتور بارنيكوت.» ثم أظهر لهدسون الصورة الفوتوغرافية، وقال له: «هل تعرف هذا الرجل؟»

أجاب صاحب المتجر: «لماذا؟ نعم، اسمه بيبو. كان يساعدني في المتجر فترة قصيرة، لكنه ترك العمل الأسبوع الماضي، ولم أره منذ ذلك الحين.»

شكرنا السيد هدسون، وغادرنا المتجر. كانت نقطة توقفنا التالية هي مصنع جيلدر وشركائه. عندما وصلنا، رأينا فناء مليئًا بالتماثيل وقطع الأحجار. وبداخل المصنع كان هناك نحو خمسين رجلًا يكدون في العمل.

وجدت أنا وهولمز المدير، وسألناه عن تماثيل نابليون، فأخبرنا أن التماثيل النصفية الثلاثة قد بيعت للسيد هدسون، وكانت ضمن مجموعة مكونة من ست قطع. والقطع الثلاث الأخرى قد بيعت لهاردنج برززر في شارع هاي.

شرح المدير كذلك كيفية صنع هذه التماثيل. فقال إن الجبس يُصب في قالب فارغ كما يُصب الطمي في دلو. وما إن يجف الجبس حتى يُنزع القالب ليظهر التمثال النصفي النهائي. أخبرنا المدير أن التماثيل النصفية التي نحقق بشأنها قد صُنعت في الغرفة التي كنا بداخلها، ثم وُضعت في غرفة أخرى لتجف.

عندما أظهر هولمز الصورة الفوتوغرافية للمدير، غضب المدير بشدة، وصاح قائلًا: «إنه هو! نعم، أعرفه. اسمه بيبو. لقد كان يعمل هنا منذ سنة، لكنه تورط في مشكلات مع الشرطة في أحد الأيام، وطاردوه هنا حيث قبضوا عليه واعتقلوه. أُلقي به في السجن لكنني لست متأكدًا هل خرج الآن أم لا. أعتقد أن ابن عمه يعمل هنا، يمكننا أن نسأله.»

صاح هولمز: «لا، لا، لا تخبر ابن عمه بأي شيء. من المهم إبقاء الأمر سرًّا. لكن أيمكنك أن تخبرني متى بعت هذه التماثيل النصفية الستة، ومتى ألقت الشرطة القبض على هذا الرجل، بيبو؟»

نظر المدير في السجل، وأخبرنا أن تماثيل نابليون الستة قد بيعت في الثالث من يونيو/حزيران العام الماضي. وقال إن الشرطة قد ألقت القبض على بيبو قبل ذلك مباشرة، أي في نهاية مايو/أيار تقريبًا.

ازدادت المطاردة إثارة. فنحن نعلم الآن أن الشرطة قد ألقت القبض على بيبو منذ أكثر من عام. وبعد ذلك بفترة قصيرة، بيعت ثلاثة تماثيل للسيد هدسون، ووصل اثنان منها إلى دكتور بارنيكوت. أما الثلاثة الأخرى، فقد بيعت لمتجر آخر، وهو هاردنج برززر

في شارع هاي ستريت. ووصل أحدهم إلى هوارس هاركر. ونعلم كذلك أن بيبو قد أُطلق سراحه مؤخرًا، وذهب للعمل في متجر السيد هدسون. كان من الواضح أن بيبو هو من يسعى وراء تماثيل نابليون.

بعد زيارتنا لمصنع جيلدر وشركائه، تابعنا تعقب آثار تماثيل نابليون. وقادنا التحقيق الذي أجريناه إلى متجر هاردنج برزرز.

قال السيد هاردنج: «نعم، لقد حصلنا على التماثيل النصفية من مصنع جيلدر وشركائه. وبيع أحدها للسيد هوراس هاركر، بينما بيع الاثنان الآخران للسيد جوسيا براون والسيد ساندفورد.»

قال هولمز: «حسنًا، وهل سبق لك رؤية هذا الرجل؟» وأعطى للسيد هاردنج الصورة الفوتوغرافية.

رد هاردنج قائلًا: «كلا، لا يمكنني القول إنني قد رأيته من قبل.»

قال هولمز: «سؤال أخير: هل يمكن لأحد الاطلاع على سجلاتك ومعرفة إلى من بيعت التماثيل النصفية؟»

أجاب هاردنج: «أعتقد ذلك، فأنا لا أحتفظ بسجلاتي في مكان مغلق بمفاتيح أو أقفال.»

حصلت أنا وهولمز على أجوبة لأسئلتنا، وتوجهنا إلى المنزل لمقابلة لستراد. وفي طريقنا إلى المنزل، اشترينا إحدى الصحف، وكان العنوان الرئيسي بها: «جريمة قتل على يد مجنون». كان مقالًا لهوراس هاركر. وداخل المقال كتب السيد هاركر أن الشرطة وشيرلوك هولمز يعتقدان أن هناك تفسيرًا واحدًا لجريمة القتل، وهو أن شخصًا مجنونًا قد ارتكبها.

كان المفتش في شارع بيكر بالفعل عندما وصلنا، وكان يومه مثمرًا مثل يومنا.

قال لستراد: «هذا صحيح يا سادة. فأنا أعرف اسم القتيل، إذ يعرفه أحد الضباط بمقر الشرطة. اسمه بيترو فينوتشي، وكان عضوًا بإحدى العصابات الخطيرة الشهيرة. أعتقد أن العصابة كانت تبحث عن الرجل الموجود في الصورة لسبب ما، وكان فينوتشي يحمل صورته لكي يعثر عليه ويقتله.»

تابع لستراد حديثه قائلًا: «أعتقد أن فينوتشي اتبع ضحيته المقصودة، ورآه وهو يدخل منزل هاركر، ثم انتظر خارجه. وعندما خرج منه تعارك الاثنان. لكن من لقى حتفه كان فينوتشي.» ثم قال وضحكة عريضة ترتسم على وجهه: «ما رأيك في ذلك يا سيد هولمز؟»

صاح هولمز: «رائع يا لستراد! لكن ماذا عن التماثيل النصفية المحطمة؟»

سأل لستراد: «هل لا تزال مهتمًّا بالتماثيل النصفية؟ إنني موقن تمامًا يا سيد هولمز، أن كل ما أحتاجه هو استجواب أعضاء عصابة فينوتشي الآخرين، وسوف يقودونني إلى الرجل الموجود في الصورة الفوتوغرافية.»

قال هولمز: «أخالفك الرأي. فبدلًا من مطاردة عصابة فينوتشي، أعتقد أننا سنعثر على الرجل الذي نسعى وراءه في مكان آخر. لا يزال هناك تمثالان نصفيان متبقيين من المجموعة الأصلية المكونة من ستة تماثيل. أحدهما بيع للسيد جوسيا براون، والآخر للسيد ساندفورد. سنعثر على رجلنا في أحد منزلي هذين الرجلين. ونظرًا لقرب منزل السيد براون، فأعتقد أن حظنا هناك سيكون أوفر.»

قال هولمز: «رجاءً، لتبق لتناول العشاء أيها المفتش. وبعد ذلك سنذهب جميعًا لزيارة السيد براون. هل تتكرم يا واطسون باستدعاء أحد سعاة البريد؟ هناك خطاب مهم للغاية يجب أن أرسله ...»

غادرنا شارع بيكر في الساعة الحادية عشرة تلك الليلة، ووصلنا سريعًا إلى منزل جوسيا براون. كان المنزل مظلمًا، وكنت سعيدًا بأن هولمز طلب مني إحضار سلاحي معي. بدا أن الجميع قد خلدوا إلى النوم. كان هناك مصباح واحد مضاء على باب جانبي، ويلقي بدائرة من الضوء على ممشى الحديقة. أما باقي الفناء، فكان مظلمًا، وانتظرنا بالخارج تحت ظل السياج.

لم نضطر إلى الانتظار طويلًا. فبينما كنت أنا ورفيقي جاثمين في الظلام، فتح أحدهم البوابة، وأسرع في هدوء على طول طريق الحديقة، ثم اختفى في ظلال المنزل. بعد مضي ما بدا دقائق طويلة، سمعنا صوت صرير منخفضًا. كان صوت نافذة تُفتح، وبعد لحظات، ومض ضوء مصباح داخل المنزل.

لا بد أن الغريب قد عثر على ما كان يبحث عنه، لأنه ظهر ثانية بالخارج على ممشى الحديقة. وفي ظل الضوء الضعيف، تمكنت من رؤية أنه كان يحمل شيئًا تحت ذراعه. جثا الرجل، ووضع الشيء الذي كان يحمله على الأرض. وتبع ذلك صوت جبس يتحطم. في تلك اللحظة أسرع هولمز من بين الظلال، وهاجم الغريب. لحقت به أنا ولستراد، وسرعان ما كان اللص مكبلًا بالأصفاد. أدرنا وجهه ناحية الضوء، ورأينا أنه الرجل الموجود في الصورة.

راقبت أنا والمفتش الرجل الذي ألقينا القبض عليه بعناية. في هذه الأثناء جثا هولمز على ممشى الحديقة. كان يفحص تمثال نابليون النصفي المحطم إلى مئات القطع. أخذ

يلتقط قطعة وراء الأخرى، وحمل كلًّا منها في الضوء. في تلك اللحظة، فُتح باب المنزل، وظهر رجل.

نظر هولمز إلى أعلى، وقال: «السيد جوسيا براون، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل: «نعم، لا بد أنك شيرلوك هولمز. لقد تلقيت رسالتك التي بعثتها مع ساعي البريد هذا المساء، وفعلت ما طلبته مني بالضبط؛ فأغلقت جميع الأبواب بالأقفال، وأطفأت الأنوار، وتأكدت من وجود أسرتي بالطابق العلوي. يسعدني أنك ألقيت القبض على الرجل الذي كنت تسعى وراءه.»

تقدم لستراد للأمام، وقال: «نعم، والآن سآخذه إلى مركز الشرطة. أنا ممتن للغاية لك يا سيد هولمز، لإنهاء هذه القضية.»

قال هولمز: «على العكس تمامًا يا لستراد، فلم تُكتب النهاية بعد. إن تكرمت بزيارتي أنا ودكتور واطسون مساء غد في الساعة السادسة، يمكن أن أوضح لك القصة كاملة.»

عندما التقينا مساء اليوم التالي، أخبرنا لستراد بما عرفه عن اللص. كان يُدعى بيبو بالفعل، وكان نحاتًا ماهرًا في الماضي، لكنه اتجه إلى الجريمة في السنوات الأخيرة. وقد صنع هذا الرجل، الذي قبض عليه، على الأرجح تماثيل نابليون الستة بنفسه أثناء عمله بمصنع جيلدر وشركاه. لكنه لم يوضح السبب وراء تحطيمه لها.

بدا على هولمز الملل ونفاد الصبر أثناء استماعه للمفتش، ثم رن الجرس معلنًا عن وصول زائر. سمحت صاحبة العقار، السيدة هدسون، للزائر بالدخول، وانضم إلينا في الردهة. كان رجلًا عجوزًا يعاني العديد من الحروق بجانب وجهه. وكان يحمل حقيبة كبيرة وضعها على الطاولة.

سأل الرجل: «السيد شيرلوك هولمز؟»

أجاب هولمز: «لا بد أنك السيد ساندفورد.»

قال الزائر: «نعم، لقد تلقيت رسالتك، وأتيت على الفور. لكنني لا أفهم كيف عرفت أنني أملك تمثالًا نصفيًّا لنابليون، ولا أفهم لماذا ترغب في شرائه مني. أنت تعلم بالتأكيد أنني لم أدفع الكثير في مقابله؟»

قال هولمز: «نعم، سيد ساندفورد، إنني أعلم. لكنني أرغب في امتلاكه والدفع في مقابله المبلغ الموضح في رسالتي.»

هز الزائر كتفيه، وفتح الحقيبة. أدخل يديه، وأخرج تمثال نابليون النصفي السادس، ووضعه على الطاولة. وأخيرًا، رأينا التمثال الذي لم يسبق لنا رؤيته سوى محطمًا.

دفع هولمز للسيد ساندفورد المبلغ، وشكره. وعندما غادر زائرنا المتحير، راقبت أنا ولستراد هولمز مندهشين. فقد فرش قطعة قماش كبيرة على المائدة، ووضع التمثال النصفي عليها. أخذ بعد ذلك قضيب تذكية النار المعدني من المدفأة، وضرب التمثال فحطمه. بعثر هولمز كومة القطع المتكسرة، ثم التقط قطعة واحدة منها. أمسك بها إلى أعلى ليراها، وكان هناك جسم صغير دائري داكن اللون يبرز من الجبس الأبيض.

صاح هولمز قائلًا: «أيها السادة، إليكما لؤلؤة آل بورجيا!» حدقنا أنا ولستراد كل منا في الآخر في صمت من شدة الذهول، ثم أخذنا نصفق بقوة وكأننا قد شاهدنا أداءً مسرحيًّا خلابًا. وتوردت وجنتا هولمز تعبيرًا عن شعور نادرًا ما كان يظهر عليه.

أوضح هولمز: «هذه الجوهرة الثمينة ملك لأمير كولونا. سمعت عنها أول مرة منذ أكثر من عام، عندما فُقدت من غرفة الأمير بفندق داكر. ولم يمكنني مساعدة الشرطة في البحث عن اللؤلؤة أو السارق. لكننا اشتبهنا في خادمة الأميرة، وكانت امرأة تُدعى لوكريشيا فينوتشي. وأنا على يقين أن أخاها بيترو هو من قُتل في تلك الليلة، ولن يدهشني الأمر إن عرفت أنها كانت تعرف صديقنا بيبو كذلك.»

سألته: «لكن إذا كانت الخادمة هي من سرقت اللؤلؤة، فكيف وصلت إلى هذا التمثال؟»

أجاب هولمز: «لنتتبع ما حدث خطوة بخطوة، بدءًا من السرقة التي تمت منذ عام. أخذت الخادمة اللؤلؤة، وأعطتها لأخيها وبيبو للاحتفاظ بها وبيعها. بعد ذلك، ولسبب ما، لاحقت الشرطة بيبو. فأخذ اللؤلؤة معه، وفر إلى مصنع جيلدر وشركائه. ومع اقتراب الشرطة، رأى بيبو تماثيل نابليون الستة التي كانت تجف في المصنع. فأخذ واحدًا منها، وحفر حفرة صغيرة في الجبس اللين، ووضع اللؤلؤة بداخلها، ثم غطى ما فعله بمزيد من الجبس. وألقت الشرطة القبض عليه، واللؤلؤة مخبأة في مكان آمن.

عندما كان بيبو يقضي عامه في السجن، بيعت التماثيل النصفية الستة. فذهبت ثلاثة منها إلى متجر مورس هدسون، فبيع اثنان لدكتور بارنيكوت. أما الثلاثة الأخرى، فوصلت إلى متجر هاردنج برزرز حيث بيعت لهوراس هاركر، وجوسيا براون، والسيد ساندفورد.

أُطلق بعد ذلك سراح صديقنا، وكان ابن عمه لا يزال يعمل في مصنع جيلدر وشركاه، وكان هو من اكتشف الأماكن التي وصلت إليها التماثيل. تمكن بيبو من الحصول على وظيفة في متجر مورس هدسون، وهناك حطم أول تمثال نصفي ليرى هل يحتوي على اللؤلؤة أم لا. ولم تكن بداخله، فعثر على تمثالي دكتور بارنيكوت، وحطمهما أيضًا.

ولم يعثر على اللؤلؤة، فاقتفى أثر تمثالي نابليون الآخرين وصولًا إلى متجر هاردنج برزرز، وبحث في السجلات ليكتشف بيع أحد التمثالين النصفيين إلى هوراس هاركر. والتقى في منزل السيد هاركر بشريكه القديم، فينوتشي.»

سأل المفتش: «لكن لماذا قتل فينوتشي؟ ولماذا كان مع فينوتشي صورة لبيبو؟ فهو يعلم بالفعل شكله.»

قال هولمز: «لست متأكدًا من سبب مقتل فينوتشي؛ ربما سرق بيبو اللؤلؤة من فينوتشي، وربما كانا شريكين، لكن فينوتشي حمل الآخر مسئولية ضياع اللؤلؤة. أما بالنسبة للصورة الفوتوغرافية، فمن المحتمل أن يكون فينوتشي قد استخدمها للبحث عن بيبو. فكان يريها للناس ويسألهم هل رأوا الرجل أم لا.»

تابع هولمز حديثه: «ليس هذا مهمًّا، ما يهم أنني علمت أنه لن يتوقف حتى يعثر على اللؤلؤة. وقد جعلت السيد هاركر ينشر في تقريره الصحفي أننا نتعامل مع شخص مجنون، واعتمدت على أن يقرأ بيبو الجريدة. وبهذه الطريقة، سيعتقد أن بإمكانه السعي وراء التمثالين النصفيين الأخيرين بأمان.

كان منزل السيد براون الأقرب، فبعثت إليه برسالة أخبرته فيها أن يطفئ جميع الأضواء، ويحرص على تأمين الجميع في الطابق العلوي. وعندما توصلنا إلى الرجل الذي كنا نسعى وراءه، ولم نعثر على اللؤلؤة، علمت في الحال أن الكنز لا يمكن أن يوجد إلا في تمثال نابليون الأخير الذي يملكه السيد ساندفورد. فبعثت إليه برسالة طالبًا منه الحضور إلى شارع بيكر. والباقي تعلمانه.»

ختم هولمز حديثه قائلًا: «وهكذا، وصلت اللؤلؤة من فندق داكر إلى يدي.» وحمل اللؤلؤة النفيسة لنتأملها جميعًا بإعجاب.

صاح لستراد متعجبًا: «هذا مذهل يا سيد هولمز، مذهل حقًّا! لقد عملت معك في الكثير من القضايا من قبل، لكنني لا أتذكر منها ما يجعلني فخورًا بك أكثر من هذه المرة.»

قال هولمز: «شكرًا يا لستراد، شكرًا لك. إذا واجهت أية مشكلات بسيطة أخرى، فأرجو أن تحيطني بها علمًا؛ فسيسعدني توجيهك بنصيحة أو أكثر لحلها.»